شذرات ثقافية

العدد 15

محتويات العدد:



افتتاحية العدد للأستاذ الدكتور محمد صالحين



من شعب الإيمان الاجتماعية

•أن نسعى بين الناس بالصلح والوفاق!

إننا نعيش في مجتمع بشري، فيه كل طبائع الإنسان؛ من الوفاق والخصام، والقبول والرفض، والحب والكُره، والموالاة والمعاداة، والتعاون والتدابر، والقرب والبعد، إلخ.

نعم لسنا في مجتمع ملائكي كله نور، ولسنا في مجتمع شياطين كله ظلمات.

وواجب العقلاء منا أن يجتهدوا في زيادة مساحات الاتفاق والود والسلام بين الناس، وأن يسعوا إلى تقليل مساحات الاختلاف، والشقاق، والخصام، والثأر، والانتقام، والتقاتل، والتحارب، بين الناس؛ جميع الناس.

وإنَّ هذا الاجتهاد الحميد، وهذا السعي المبارك لمن أعظم شُعَب الإيمان؛ قال الله تعالى: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء/114]

ونفهم من الآية الكريمة أن أغلب ما يتداوله الناس في حواراتهم، واجتماعاتهم، ومناقشاتهم ليس فيه خير، اللهم ألا أن يكون بقصد: كفالة المعوزين، أو إرساء الأعراف الحميدة، أو السعي لسد مواطن الخلاف، ومواضع النزاع بين كل البشر.

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس بكذاب: من أصلح بين اثنين؛ فقال خيرًا، أو نما خيرًا" أي: يجوز-من أجل إتمام الإصلاح بين المتخاصمين-أن يتحدث الوسطاء إلى كل طرف بما يُرَّغِبُهُ في الصلح، ويُقَلِّلَ من غضبه على الطرف الآخر، ولو كان هذا الكلام الطيبُ لم يحدثْ أصلًا!

فاللهم أصلح ذات بيننا، وألف بين قلوبنا ... آمين!

•أن نوقر الكبير، ونحترم النديد، ونرحم الصغير!

إن توقيرك من هو أكبر منك سنًا، أو مقامًا: من الإيمان!

وإن احترامك من في مرتبتك: من الإيمان!

وإن رحمتك من هو أصغر منك: من الإيمان.

ففي الأثر: "ليس منا-يعني من أكمل المؤمنين-من لم يوقر كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالِمنا حقه"

ولنحاولْ أن نتخيل مجتمعًا إنسانيًّا تسوده هذه القيم الراقية: التوقير، والاحترام، والرحمة! لا شكَّ أنه سيكون من أرقى المجتمعات، وأنبلها، وأكثرها تحضرًا!

ورحمة الأصغر منك لها طُرقٌ كثيرة، وكريمة؛ فمنها: أن تتواضع له، وأن تجيب مطلبه في حدود طاقتك، وأن تصبر على طيشه، وسوء تصرفه، وكثرة تقصيره، وأن تترفق به عند الخطأ، وألا يطلع منك إلا على كل خير؛ لأنك في موضع القدوة بالنسبة له.

ومن احترام النديد: أن تحفظ له مكانته، وألا تخلط معه الجد بالهزل، وأن تحافظ على شعوره، وأن تذكر مميزاته، وتمدح مهاراته، وتُثني على أخلاقه، وأن تدافع عنه بالحق، وأن تُخلص لها النصيحة بغاية الترفق، وأن تُحسن عشرته.

ومن توقير الكبير: أن تُقَدِّمَه على نفسك في كل شأن ذي بال، وأن تُخاطبه بما يليق بمكانته؛ من الأسماء، أو الألقاب، وأن تكون في حضرته في غاية الحشمة والتحفظ وأن ترجع إلى رأيه في الأمور الجليلة، وأن تأخذ بمشورته في القضايا الخطيرة.

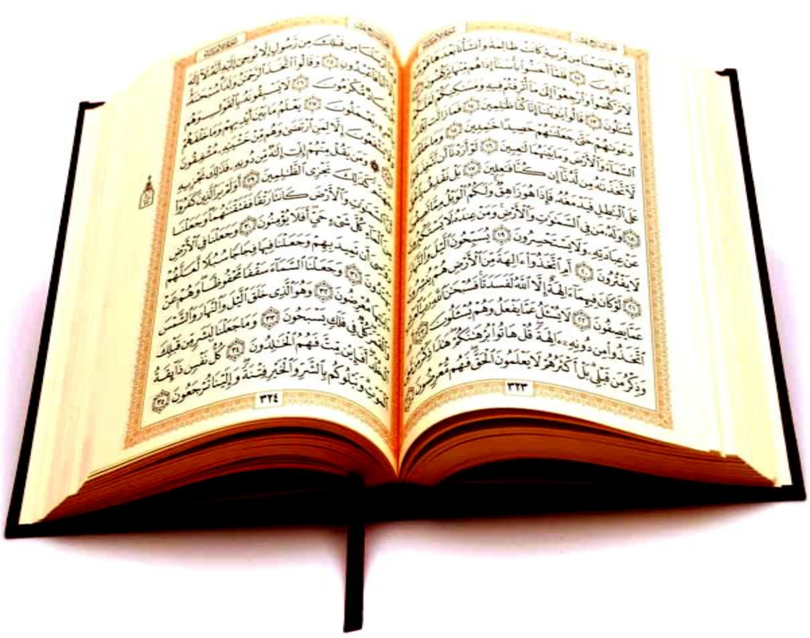
إن هذه سلوكيات حضارية، غير أننا نحب أن نضيف إليها اللمسة الإيمانية؛ حتى نظفر بثواب الآخرة، مع راحة الدنيا.



القياس هو الدليل الرابع من الأدلة المتفق عليها عند جماهير العلماء، خلافا للظاهرية وبعض المعتزلة. وقد وردت نصوص من القرآن والسنة فيها الإشارة إلى حجيته، ومن النصوص التي استنبط منها المفسرون حجية القياس قوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ)[النساء:105]، ويحاول هذا المقال تسليط الضوء على هذا الاستنباط من خلال النظر في مقولات المفسّرين في الآية، وتحليلها ومناقشتها.

شرح الاستنباط:

قوله تعالى: (أراك): الهمزة في (أرى) للتعدية، وأصل الفعل (رأى)، "فلا يخلو (أراك) من أن يكون نقلها بالهمزة من التي هي (رأيت) رؤية البصر، أو (رأيت) التي تتعدى إلى مفعولين، أو (رأيت) التي بمعنى الرأي، الذي هو الاعتقاد والمذهب".



أي أن (رأى) التي زيدت عليها همزة التعدية تحتمل ثلاثة معان: الأول: من رؤية البصر.

المعنى الثاني: من الرأي.

المعنى الثالث: من العلم، وهي التي تتعدى إلى مفعولين.

"فلا يجوز أن تكون [أراك] من الرؤية التي معناها: أبصرت بعيني، لأن الحكم في الحوادث بين الناس ليس مما يدرك بالبصر، فلا يجوز أن يكون هذا القسم، ولا يجوز أن يكون من (رأيت) التي تتعدى إلى مفعولين، لأنه كان يلزم بالنقل بالهمزة أن يتعدى إلى ثلاثة مفعولين، وفي تعديه إلى مفعولين- أحدهما الكاف التي للخطاب، والآخر المفعول المقدر حذفه من الصلة، تقديره: بما أراكه الله، ولا مفعول ثالث في الكلام- دلالة على أنه من (رأيت) التي معناها الاعتقاد والرأي، وهي تتعدى إلى مفعول واحد، وإذا نقل بالهمزة تعدى إلى مفعولين".

وقيل: (أراك) بمعنى علمك، وهو متعد إلى مفعولين أيضا، وهو قبل التشديد متعد إلى مفعول واحد.

تحصل من هذا أن قوله تعالى: (بما أراك الله) يحتمل معنيين:
الأول: بما جعله لك رأيا، أي بما يؤديك اجتهادك إليه أنه حق.
الثاني: بما علمك الله في كتابه، والمراد به الوحي. روى الطبري بسنده عن السدي أنه قال: "أما (ما أراك الله) فما أوحي الله إليك".
فالآية تعم ما يراه النبي صلى الله عليه وسلم من النص، والاستنباط من النصوص، ولذلك قال ابن عطية: "(بما أراك الله) معناه: على قوانين الشرع، إما بوحي ونص، أو بنظر جار على سنن الوحي".
وقال ابن جزي: "(لتحكم بين الناس بما أراك الله) يحتمل أن يريد بالوحي أو بالاجتهاد أو بهما".
ففي الآية دليل على جواز الاجتهاد. وإذا تضمنت الآية الاجتهاد، ففيها دليل على إثبات القياس، لأن القياس نوع من الاجتهاد.
وفيما يلي أقوال لبعض المفسرين تؤيد هذا الاستنباط:
يقول ابن الفرس -في أحكام القرآن-: "في هذه الآية إثبات الرأي والقياس".
ويقول القاسمي -في تفسيره-: "وقد عد الناس قوله تعالى: (لتحكم بين الناس بما أراك الله)، متضمنا للقياس".
وقال محمد الحجوي: "أي بما أراك فيه من الاستنباط والقياس، لأن الذي أراه فيه من الاستنباط والقياس هو مما أنزل الله وأمره بالحكم به".
ويقول ابن عجيبة الحسني المغربي: "(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) أي: ملتبسا بالحق لتحكم بما فيه من الحق بين الناس بسبب ما أراك أي: عرفك الله بالوحي، أو بالاجتهاد، ففيه دليل على إثبات القياس، وبه قال الجمهور. وفي اجتهاد الأنبياء خلاف".
أما طريق الاستنباط هو دلالة الإشارة؛ فالآية تدل بعبارتها على أن الرسول صلى الله عليه وسلم يشرع له الاجتهاد، ويلزم منه -أي تدل بإشارتها- على مشروعية القياس؛ لأن الاجتهاد متضمن للقياس.
اعتراض:
اعترض على المقدمة الأولى من هذا الاستنباط: وهي دلالة الآية على مشروعية الاجتهاد، فقد اختلف العلماء في الذي أراه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم؛ فقال فريق: هو ما يراه -صلى الله عليه وسلم- بالرأي والاجتهاد، وقال فريق آخر هو ما ينزل عليه به الوحي. وممن قال بالقول الثاني من المفسرين: مقاتل بن سليمان، والتستري، والسمرقندي، كما جاءت آثار عن بعض السلف تشهد له، من ذلك ما روى ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: "إياكم والرأي، قال الله تعالى لنبيه: احكم بينهم (بما أراك الله) ولم يقل: بما رأيت". وما وراه الطبري بسنده أيضا عن السدي أنه قال: "أما (بما أراك الله) فما أوحى الله إليك".
وبناء على هذا القول الثاني فقد ذهب بعض العلماء إلى أن الآية تدل على أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يجتهد ولم يكن الاجتهاد جائزا له، بل كان يحكم بالنصوص فقط، قال النيسابوري: "قال بعض العلماء: في الآية دلالة على أنه -صلى الله عليه وسلم- ما كان يحكم إلا بالوحي والنص، وأن الاجتهاد ما كان جائزا له صلى الله عليه وسلم". ونسب الفخر الرازي هذا الرأي إلى المحققين، قال رحمه الله: "قال المحققون: هذه الآية تدل على أنه عليه الصلاة السلام ما كان يحكم إلا بالوحي والنص. وإذا عرفت هذا فنقول: تفرع عليه مسألتان: إحداهما: أن لما ثبت أنه عليه الصلاة والسلام ما كان يحكم إلا بالنص ثبت أن الاجتهاد ما كان جائزا له."، وأكثر المتكلمين على عدم جواز الاجتهاد للنبي صلى الله عليه وسلم استدلالا بهذه الآية.
ومن هنا استدل الظاهرية على نفي القياس بالآية نفسها؛ فإذا كان في الآية دلالة على أنه صلى الله عليه وسلم ما كان يحكم إلا بالنص وأنه ليس له أن يحكم برأيه، وأن الاجتهاد غير جائز له، لأن الله أمره أن يحكم بما أراه الله لا بما يراه هو - وجب أن يكون حال الأمة كذلك من باب أولى لقوله تعالى: (فاتبعوه) [الأنعام:154]. وإذا كان كذلك وجب أن يكون العمل بالقياس حراما.
الجواب عن هذا الاعتراض:
أن قوله تعالى: (لتحكم بين الناس بما أراك الله) -كما سبق- يحتمل أن يريد بالوحي أو بالاجتهاد أو الوحي والاجتهاد معا، ولا تعارض بين المعنيين؛ لأن الله تعالى جعل اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم وحيا باعتبار المآل، لأن إقرار الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم على اجتهاده يدل على أنه هو الحق كما إذا ثبت بالوحي.

كذلك فإن العمل بالقياس يعد عملا بما أمر الله وبما أوحى إلى نبيه؛ "فإنه يصير التقدير كأنه تعالى قال: مهما غلب على ظنك أن حكم الصورة المسكوت عنها مثل حكم الصورة المنصوص عليها بسبب أمر جامع بين الصورتين فاعلم أن تكليفي في حقك أن تعمل بموجب ذلك الظن، وإذا كان الأمر كذلك كان العمل بالقياس عملا بعين النص"، فلا يكون القياس ممنوعا، بل هو مما أنزل الله على نبيه وهداه إليه وأمره بالحكم به.

الاستنتاج:

القياس الصحيح حجة، ودليل من الأدلة الشرعية المعتبرة لإثبات الأحكام الشرعية، وقد "اتفق جمهور العلماء على إثبات القياس والاحتجاج به من حيث الجملة، بل ذكره كثير من علماء أهل السنة ضمن الأدلة المتفق عليها"، وهو مذهب جمهور العلماء من السلف والخلف، وعليه أدلة كثيرة من الكتاب والسنة وعمل الصحابة رضي الله عنهم، ذكر منها الشيخ عبد الكريم النملة أربعة عشر دليلا.

يقول الشيخ الأمين رحمه الله: "اعلم أن تحقيق المقام في هذه المسألة التي وقع فيها من الاختلاف ما رأيت أن القياس قسمان: قياس صحيح، وقياس فاسد.

أما القياس الفاسد فهو الذي ترد عليه الأدلة التي ذكرها الظاهرية وتدل على بطلانه، ولا شك أنه باطل، وأنه ليس من الدين كما قالوا وكما هو الحق.

وأما القياس الصحيح فلا يرد عليه شيء من تلك الأدلة، ولا يناقض بعضه بعضا، ولا يناقض ألبتة نصا صحيحا من كتاب أو سنة. فكما لا تتناقض دلالة النصوص الصحيحة، فإنه لا تتناقض دلالة الأقيسة الصحيحة ولا دلالة النص الصريح والقياس الصحيح، بل كلها متصادقة متعاضدة متناصرة، يصدق بعضها بعضا، ويشهد بعضها لبعض. فلا يناقض القياس الصحيح النص الصحيح أبدا".

لكن يبقى استنباط حجية القياس من قوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ) محل نظر، وذلك لأنه مبني على مقدمة مختلف فيها ألا وهي قضية دلالة الآية على جواز اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم، فهذه الآية -كما تقدم- يستدل بها المثبتون لاجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم ويستدل بها كذلك المانعون. والشيخ رشيد رضا يقرر أن هذه الآية ليست نصا في المنع ولا في الإثبات. ويقول في موضوع آخر من تفسيره -بعد أن نقل كلاما للطوفي في هذه المسألة-: "الآية في الحكم بكتاب الله لا في الاجتهاد، ولكنها لا تدل على منع الاجتهاد، ولا عليه أيضا".



*فى البداية دعونا نتسأل؟؟

لماذا انهارت الحضارة الإسلامية؟ ولماذا خسر العالم العربى تفوقه على أوروبا

وغيرها من الحضارات؟ وكيف حدث ذلك؟ أيرجع سبب هذا الانحدار إلى سمة متأصلة في الإسلام؟ وماذ يمكن فعله كي يستطيع العرب والمسلمون استعادة مكانهم المستحق في المسيرة نحو المستقبل؟ هذه الأسئلة وغيرها يطرحها الدبلوماسي الأمريكي مايل هاميلتون مورجان في كتابه"من مكة إلى الميتاداتا" الصادر عن دار نهضة مصر.

يحاول الكاتب تقديم إجابات لهذه الأسئلة فيبدأ قائلا "عليَّ أن أصرح أولا بأنني لا أعتقد أن هذا الدين أو هذه الحضارة تنطوي على مقدرات فشل تزيد على ما لدى أي ما أي دين أو حضارة أخرى، فالإسلام والحضارة المحيطة به مثل كل نظام أو عقيدة أو أيديولوجية أخرى- يعبر عنه وينفذ تعاليمه بشر، والبشر جميعهم قادرون على بلوغ آفاق العظمة أو السقوط في الفشل."

وأكد أن "الحضارة الإسلامية العربية لا تختلف عن غيرها من الحضارات في هذا السياق، لكن يوجد عدد من المقومات التي أسهمت - على ما يبدو - في وضع حد للعقلانية الإسلامية العربية المتوجهة نحو المستقبل"

ويقر مورجان "لا شك أن العالم العربي - على الأقل حاليا- فقد مكانه في مسيرة تطور العلوم، لكن علينا مراعاة أنه لا يوجد نظام بشري- مهما كانت قوته وتطوره- منيع على حتمية التدهور والانهيار"، لافتا إلى أن الأنظمة البشرية الضخمة المعقدة عرضة لمخاطر عدة مثل الحروب والكوارث الطبيعية والخلل الناتج عن مصادر طبيعية أو وبائية والتفاوت الاجتماعي والتلاعب السياسي والاستنزاف والملل ليس إلا

ويستشهد مورجان، بالمقولات المنسوبة إلى كل من "كارك ماركس" و"مارك توين" منها "كل نظام يحمل داخله بذور فنائه"، "وما يحققه نظام من نجاحات قد يكون سبب فشله"، متابعا: "ومن أن التطورات السريعة غيرالمسبوقة في العقلية الإسلامية قد ولدت خوفا ثقافيا كامنا"



ويرصد: "في الواقع تحولت هذه الحضارة - التى نشأت في البقاع الحارة بصحراء شبه الجزيرة العربية من مجتمع رعوي إلى مجتمع فكري إمبراطوري متمدن- في غضون خمسين عاما فحسب، ويلفت إلى وكانت الثورة المضادة مستمرة منذ بداياته الأولى

وأوضح: "نجد نموذجا على ذلك في عهد المأمون الحاكم العقلاني العظيم الذي كانت فرقته المعتزلة المتحررة فكريا على طرفى النقيض من المحافظين بقيادة ابن حنبل، شعر المأمون بضرورة بدء ما يعرف بـ(منحة خلق القرآن) وهى تحقيق قضائي بدأ في القرن التاسع الميلادي، كانت المحنة نخبوية نابعة من رأس السلطة الحاكمة بهدف الدفاع عن العقلانية التى لم تلق فهما حقيقيا من جموع الرعية وجماعة المؤمنين واستمرت إلى أن أوشكت في القرن التاسع الميلادى على التفاقم إلى معرضة صريحة وتذمر ينذر بانقلاب.

والنتيجة حسب رؤية "مورجان": هجر الخلفاء اللاحقون المحنة، وأصبحوا أكثر انحيازا إلى الجموع المحافظة، لكنهم ظلوا على دعمهم المعتاد للتطورات في العلوم والطب والتجارة وغيرها من المجالات. إلى ظهر العديد من الحركات المضادة للتوجه المستقبلى: الخوارج والأشعرية وغيرهم ومع نجاحهم فى اجتذاب الدعم الشعبي بدرجات متنوعة فقد استغرقوا وقتا أطول للتأثير على أركان السلطة وهو ما يصفه هليل أوفك قائلا:حقق رد الفعل العنيف ضد المعتزلة نجاحا هائلا، ومع حلول عام885 بعد نصف قرن من وفاة المأمون بلغ الوضع حد تجريم حيازة نسخ من كتب الفلسفة وبدأت عملية تجريد الثقافة العربية من تأثير الحضارة الهيلينية إلى أن همش تأثير المعتزلة تهميشا شبه تام مع مقدم القرنين الثانى عشر والثالث عشر.ومن المصدر ذاته يتابع "وحلت محل المعتزلة مدرسة الأشعرية المعادية للعقلانية التى ترتبط زيادة نفوذها بتدهو العلوم العربية، ومع بزوغ نجم الأشاعرة أصبحت روح العالم الإسلام معادية أكثر فأكثر للمعرفة المبتكرة، وأى بحث علمي لا يدعم التنظيم الديني للجياة العامة والخاصة دعما مباشرا

ويقف الكاتب عند نقطة مهمة: "لم ينحسر التيار تماما عن الحضارة الفكرية الإسلامية العربية، إلا في القرن الثاني عشر مع انقلاب أحد المفكرين العرب - الغزالي- على ثقافة المفكرين المتأثرين بالحضارة الهيلينية (اليونانية والرومانية) كانت أفكار الغزالى تنتشر على

المستوى الفكرى، لكن ما لعب دورا يعادل أهمية دور الغزالى فى إبطاء مسيرة التقدم بالعالم العربى كانت فاجعة غزوات المغول والتيموريين. كان تدمير بغداد1258 صدمة نفسية ظل صداها يتردد على مدار قرن ولمسافات تبلغ مئات الأميال:

أما أسباب سقوط العالم الإسلامي فإن الحديث عنها يطول، فالأسباب كثيرة ومتعددة، إلا أنه يمكن إجمالها بصورة مختصرة في أن الأمة لم تعمل بدينها الحق ظاهراً وباطناً كما أمر الله تعالى، فما آلت إليه أحوالها هو نتيجة طبيعية وحتمية لتفريطها في دينها الصحيح الذي منَّ الله به عليها، وأتحفها به دون سائر الأمم الأخرى

ثم إن واقع الأمة المعاصر المحفوف بالتخلف والانهزام والتبعية: يُعتبر من أعظم وأقوى الأدلة على صحة دين الإسلام، وسلامته من التحريف، وكماله وجماله، فلو قدر أن تفوَّق المسلمون، وحصل لهم التقدم الحضاريالمنشود وهم على تفريطهم هذا في دينهم: لكان ذلك أعظم دليل على فساد دينهم وتحريفه وضياعه، ولشابهوا -في وضعهم هذا- حال النصارى الذين ما تقدموا، ولا حصل لهم التفوق الحضاري المادي إلا بعد نبذهم وإعراضهم عن دينهم المحرف إلى المادية والإلحاد، ضمن سنة الله تعالى فيمن نسي دينه، وأعرض عنه رافضاً له: أن يفتح عليه أبواب كل شيء.

إن أمة الإسلام ما دام أنها تعلن أنها مسلمة، في الوقت الذي لا تطبق فيه إسلامها بصورة صحيحة، فلن نتوقع لها أيَّ تقدم حضاري صحيح متفوق -مهما حاولت- حتى تراجع دينها، وتأخذه بقوة، وتعمل به ظاهراً في سلوكها، وباطناً في معتقداتها، أوحين تنبذه بالكلية جهاراً دون مواربة، وتعلن بوضوح أنها أمة ليست إسلامية، وتفعل بدينها ما فعله النصارى بدينهم، فعندئذٍ يجري على أمة الإسلام ما جرى على النصارى حين نبذوا دينهم فتقدموا، حيث تجري عليهم سنة الله التي لا تتخلف: {فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ} [الأنعام:44] فيحصل لهم التقدم الحضاري المادي بقدر جهدهم، ولكن لن تفوتهم سنة الله في أمثالهم وأشباههم: {حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً} [الأنعام:44].

إن مسلك النفاق المذموم لا يمكن أن يكون مصدراً لعزة المسلمين، فإن المنافق لا يكون سيداً أبداً، فقد ضرب الله على المنافقين الذل والصغار إلى يوم القيامة، حتى وإن ظهر للمنافقين شيء من السلطان فهو في ذل وهوان لا ينفك عنه، وإلا فكيف يعز الله من عصاه؟

وأمة الإسلام اليوم -للأسف- تسلك مسلك النفاق، فتعلن أنها مسلمة، وأنها متمسكة بدينها، في الوقت الذي تخالف دينها بصورة صارخة واضحة، فهذا المسلك لا يمكن معه الخروج من أزمات المسلمين المتلاحقة، بل سوف تبقى الأمة تعيش في حلقات مفرغة من المحاولات اليائسة للخروج من أزماتها، يلاحقها الإخفاق من كل مكان، حتى تراجع دينها، وتأخذه بقوة، إيماناً واعتقاداً، وعملاً وتطبيقاً، وعندها تبشر بنصر الله تعالى وتمكينه، وفتح الله عليها من كنوز السماوات والأرض -كما وعد- ويلهمها مخارج جديدة، وأسباباً مبتكرة لتجاوز أزماتها، والخروج من اختناقاتها إلى النهضة الحضارية الشاملة.

لماذا تخلف المسلمون؟

بدايةً هذا التخلف أصاب المسلمين وليس الإسلام، لأن دين الله الإسلام خالد ومحفوظ، قال الله تعالى: (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) [سورة فصلت الآية: 42] كما قال تعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)[سورة الحجر الآية: 9].

بعض المجالات في بلاد المسلمين لم يصبها التخلف الكلي مثل التعليم والبنية التحتية والاقتصاد، وهذه ليست أول مرة يتخلف فيها المسلمون، فقد انهاروا سابقاً أمام الصليبيين والمغول وفي الأندلس، ولكي نفهم لماذا تخلفنا؟ لابد أن نعرف نتائج تخلف المسلمين والفرق بين النتائج والأسباب؟

هناك من يرى أن سبب التخلف يكمن في بعض السلوكيات مثل:

- ضعف العقيدة.
- تدني المستوى الأخلاقي.
- العشوائية في التسيير مما أدى إلى الفوضى.
- التفكك الأسري وغياب المودة والرحمة، وتفشي التشرد والطلاق وغيرها من الآفات المهددة لكيان المجتمع

وهذه كلها نتائج التخلف وليست أسباب له، وهناك من يرمي سبب تخلف أمتنا على أعداءها الذين يحاولون دائماً ولا يفلحون إلا إذا كانت ضعيفة (قل هو من عند أنفسكم)!! وهناك من يقول أننا تخلفنا بسبب الضعف العسكري أو المالي ونحوه، وهذه أيضاً نتائج التخلف وليست سببه! ويرى البعض أن الاستعمار هو السبب، ولكن تخلفنا داخلي وليس خارجي، يقول البعض أن السبب عقائدي، نعم هناك منحرفين لكن العقيدة الأساسية للجمهور الأغلب في الأمة سليمة، وقد يرى البعض أن مواجهة التخلف تكون بالتقدم العمراني، ولكن هذه مظاهر للحَضارة وليست هي الحضارة نفسها، وكل من معه أموال يمكنه أن يصنع ذلك، إذاً فما هو السبب الرئيسي للتخلف؟

3 أسباب رئيسية للتخلف

1- الفكر: (العلماء)

أي الفهم الأعوج للإسلام، فالله تعالى وعدنا أن التمكين سيكون عندما نتمسك بالدِين الذي ارتضاه لنا، وليس الدين الأعوج الذي طرحه ويطرحه كثير من العلماء والفقهاء في القديم والحديث، مثل شيوخ السلاطين الذين يلعبون بالدِين و يخدرون الناس باسمه لأجل تكريس العبودية للطغاة، وتحليل كل حرام لهم بالتحايل على النصوص والتلاعب بها، وللأسف تم استعمال الدين والعلماء استعمالاً سيئاً من أجل تثبيت الطغيان، وإباحة دماء الأبرياء ومصادرة الحريات

الدين هو الذي يدعو إلى الحرية والكرامة ومقاومة الطغاة، وإلا فهو(أفيون الشعوب) كما سماه الشيوعيون. وكذلك تقنين الفتوى يجعلها محل استغلال من الأنظمة وعلماء السلطان تذكيرا بما فعله الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عندما شكى له غلو وشطط الخوارج في أقوالهم وفتاويهم ضدّه التي وصلت إلى التكفير ووصْمه بعدو الله، وهو أمير المؤمنين، فلم يلجأ إلى تقنين الفتوى وإنّما قال لهم: "قوم رأوا رأيا فدعوهم وما رأوه"، تأكيدا على أنّ الفكر لا يواجه إلا بفكر، إلا إذا وصل إلى التعدي ورفع السلاح، وأن يفتح الباب أمام الحرّيات الفكرية والسياسية والدينية.



يقول ابن خلدون رحمه الله: اعلم أن العلوم على صنفين:

الأول هو العلوم البشريةوهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره وعلمه.

الثاني هو العلوم الشرعيةوهي كلها مستندة إلى الخبر عن الله سبحانه وتعالى، وعن رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا مجال فيها للعقل، إلا بإلحاق الفروع من مسائلها بالأصول، وقيل في مثل عربي "إذا قُدِم التفكير حسنت الأفعال".

فتخلف الفكر وضعف الوعي يؤدي إلى تخلف الأمة الذي يشكل القرارات والأعمال ومن ثم النتائج، والفهم الأعوج للفكر هو الذي أبعدنا عن التمكين، ويظهر ذلك لدى فئة المفكرين والعلماء والدعاة، وعلاج هذه الأزمة لن يكون إلا بتحرير الأفراد من اتباع بعضهم البعض، إلى إتباع الوحي وهكذا يتكون لدينا جيل جديد من العلماء والدعاة متمكن من العلم الشرعي، ومنفتح على العصر، ومتَحرر من التبعية للحكام

يقول الشيخ محمد الغزالي: "الراشدون من رجالات الفكر يتفقون على أن شفاء العالم من سقامه مرتبط بعودة الإيمان إلى القلوب الفارغة" ويقول أنور الجندي أيضا: "كان الفكر الإسلامي ثمرة عملية نقد كبيرة، وعملية تصفية للفكر السابق وتجديد وبناء استغرق قرونا زاهرة في حياة العقل في الإسلام"

شمولية الفكر

أكبر أزمات اليوم هي أزمة الفكر، على اعتبار أن كل شيء في الحياة هو فرع من تصوراتنا للفكر، وإذا نظرنا إلى الفكر سنرى أنه يعكس لنا كل جوانب الحياة، فهو يشمل قضايا العقيدة ومسائلها، كما يشمل القيم والمبادئ التي يؤمن بها الإنسان، وكذا الطموحات التي يسعى إلى تحقيقها في الحياة، بل وفهمه للحياة

والخلاصة أن الفكر يشمل الحياة بشقيها الديني والدنيوي، وأن هذه الأمة لن تنهض وتعز إلا بما نهضت وعزّت به في أيامها الأولى، وعصورها الذهبية، بالفكر الأصيل، المتصل بالإسلام النقي الصافي، الذي يمكنها من منافسة الغرب والتفوق عليه، مع المحافظة على هويتنا المتمثلة في ثوبنا العربي الإسلامي الأصيل

خصائص الفكر الإسلامي



إن السبيل إلى نهضة أمتنا هو الفكر الإسلامي الصحيح، ولن تنهض بالأفكار الدخيلة، ولا بالثقافة الغربية، وللفكر الإسلامي خصائص ميّزته عن غيره كفكرٍ حضاري إنساني عادل ومتوازن له هدف واضح يسعى لتحقيقه، وهو فكر شمولي للعالم أجمع وليس محصورًا على العرب والمسلمين، وهو فكر واقعي عملي وعقلاني قابل للتحقيق، يحترم قواعد المنطق والعقل، فهو ليس فكرا لاهوتيا ولا ماديا خالصًا، بل هو فكر واقعي مادي ممدود بحبل إلهي سماوي، كما أنه يقبل المستجدات بما يتوافق ومضَامينه ومحتواه، فلا تجد مستجدًا إلا وللإسلام رأي فيه وإحاطة، وهذا ما يكسبه مرونة تساعده على الانتشار في مختلف بقاع الأرض

"ومن أنك حين تلتقي بكثير من صانعي الخطاب الإسلامي تجد أن طروحاتهم ورؤاهم وآمالهم في الإصلاح والتجديد والنهضة بعيدة كل البعد عن اعتبار المعطيات الجديدة." مثل عربي

2- القيادة: (عند الطبقة الحاكمة)
عندما تولى أمر المسلمين من لا أهل للولاية، صار همهم مصالحهم ومصالح من حولهم، وضربوا بمصالح الأمة عرض الحائط، ووجدوا من العلماء أصحاب الفهم الأعوج من يسبح بحمدهم، ويخدر الأمة بوجوب طاعتهم! هؤلاء الحكام أساس كل بلاء ومنكر، فالإسْتبداد يفتح باب الظلم على مصْراعيه، ويشجع الفساد المالي والأخلاقي، ويعطل التنمية مما يؤدي إلى زيادة الفقر، ويفتح الباب أيضا لأعداء الأمة للسيطرة علي خيراتها باسم التحالفات، وهم أكثر من يحاربون

الدعاة والعلماء المخلصين، حيث يعتبرونهم خطرا عليهم، وقد أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بتغيير المنكر باليد فإن لم نستطع فباللسان، فإن لم نستطع فبِالقلب وذلك أضعف الإيمان، وأكد صلى الله عليه وسلم أيضا أنه ليس وراء ذلك من الإيمان مثقال حبة خردل.

يقول ابن خلدون رحمه الله تعالى "اعلم أن السلطان شخص ضعيف في نفسه، لكنه يحمل مسؤولية ثقيلة، خاصة وقد استرعاه الله تعالى أمر خلقه، وهو محتاج لمن يعينه لردع الأعداء، كما يحتاج إلى كف أذى رعيته بعضها على بعض، وإلى حماية أموالهم ومصالحهم ومعَايشهم"



تحدث ابن خلدون عن المهام الأصيلة للسلطان، المتمثلة بتحقيق العدالة الاجتماعية بين الناس، وحماية أموالهم ومصالحهم، فكيف الحال إذا كان السلطان نفسه الناهب لأموال الناس، والمعتدي على مصالحهم، والمنتهك لحرُماتهم، والسالب لحُرياتهم؟!

الحل لانتشال الأمة من أزماتها بالقِيادة الواعية، التي تعتمد على الرؤية الرشيدة، نبحث في التاريخ وسنجد أن نهوض الأمم يأتي عبر قادة لهم هدف ورؤية، سواء كانوا قادة دينيين أو مفكرين أو علميين وإداريين، فأمة بدون قائد لا يمكن أن تسير بنفسها، ونحن لا نختصر الأمة بقائد وفرد واحد، لكن دور القائد حيوي ومهم في النهضة والريادة، ولذلك من الأسباب الرئيسية في تخلف الأمة هي القيادة لدى الحكام الخونة أو المستبدين أو غير الأكفاء، فهم السبب باستمرار الاحتلال الصهيوني وتخلف الأمة وشدة الظلم الذي ينتابها، وعلاج ذلك هو إعداد قيادات شابة ذات هوية إسلامية ووعي عميق ولغة عصرية ومهارات عالية، مع الولاء الكبير للأمة، يقول ابن القيم رحمه الله: "صلاح العالم بصلاح هاتين الطائفتين وفساده بفَسادهما.. العلماء والأمراء"

القيادة من مفاتيح النهضة

من أسرار نهضة الأمة في عصورها الذهبية، هي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان هدفه من تربية جيل الصحابة هو صناعة قادة من ذوي القدرات العالية والمميزة، الذين فتحوا البلاد من بعده، و أناروا للشعوب دروب الحياة، وغياب هذا الهدف اليوم عن برامج الدولة ومشاريع الحكومات أدى إلى تخلفنا، فأين هي الدول والحكومات التي تضع ضمن خططها تخريج القادة في كافة المجالات والتخصصات، فالأمة لن تنهض من كبوتها ما لم تكن القيادة والتدريب وتخريج الكفاءات القيادية ضمن أهدافها، بل ومن أولى أولوياتها.

التجربة الماليزية

لنا في إخواننا الماليزيين عبرة ومثال، فالتَجربة الماليزية قفزت بالبلاد في عشر سنوات من ذيل الترتيب بين الأمم إلى مراتب متقدمة، وهي ماضية في التنافس والعالمية.. ما السبب؟

تغيّرت القيادة، فتولت زمام الأمور قيادة ذات رؤية وفكر، وهنا بيت القصيد، فمتى وجِد القادة الذين يحملون الفكر والرؤية فإن حياتنا.. كل حياتنا ستتغير نحو الأفضل.

3- الوهن (الشعوب)
بين لنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه سَتتكالب علينا الأمم عندما يصيبنا الوهن، وشرحه بأنه(حب الدنيا وكراهية الموت)، وللأسف صارت اليوم الشعوب مستكينة أمام طغيان الحكام، بل تسبح بحمدهم خاصة عندما يتكرم عليهم الحاكم بهدايا وهبات هي أصلاً من أموال الشعب وليست أمواله الخاصة! واستسلمت الأمة للدين الذي يطرحه علماء السلاطين وهو الدين الخانع المستسلم البعيد عن أسباب النصر والعزة والتقدم

يقول سيد قطب رحمه الله: وما الطاغية إلا فرد لا يملك في الحقيقة قوة ولا سلطانا، إنما هي الجماهير الغافلة الذلول، تمطي له ظهرها فيركب! وتمد له أعناقها فيجر! وتحني له رؤوسها فيستعلي! وتتنازل له عن حقها في العزة والكرامة فيطغى!

فهذا الوهن والضعف العام في شعوب الأمة، جعلنا غثاءً كغثاء السيل وهو من أهم أسباب تخلف الأمة عن ركب الأمم، وتكالب الأعداء عليها، وعلاج ذلك يكون بتربية جيل جديد من الأمة، وكل ما نحتاجه من مجموع الأمة هو2٪ منها التي ستقود الباقية، من خلال جيل يعتز بهويته، ومستعد للموت من أجل دينه وأمته وبلاده وحريته وكرامته

يقول الشيخ يوسف القرضاوي: سر الوهن الذي نحن فيه هو حب الدنيا وكراهية الموت، فإذا غيرت الأمة ما بنفسها، ولم تعد الدنيا أكبر هَمها ومبلغ علمها؛ هنالك يغير الله ما بها، ويبدل حالها من ضعف إلى قوة، ومن ذل إلى عزة، ومن هزيمة إلى نصر وتمكين.

مرض الوهن

فأمتنا اليوم مصابة بمرض الوهن، وهو مرض قد يضعفها ويبطئ من حركِيتها، لكنه لا يقتلها، ولكن الظلم إذا تفشى وانتشر سَيهلكها، خاصة إذا غاب من يتصدى له، ويقيم العدل بين الناس

وكما قال ابن تيمية: "الأمة العادلة تبقى ولو كانت كافرة، والظالمة تزول ولو كانت مسلمة، لأن العدل هو الميزان الذي قامت عليه السموات والأرض.

ضريبة الذل

يرضى بعض الناس بالذل والإستبداد رغم أنه أوصل الأمة إلى التخلف، وسبب تلك الطاعة المطلقة هو الخوف الذي لخصه النبي صلى الله عليه وسلم بِالوهن (حب الدنيا وكراهية الموت) يقول سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه "الناس من خوف الذل في ذل" ولذلك فإن السبب الرئيسي في الرضى بالذل والاستبداد هو الخوف، والخوف يؤدي إلى الذل ويزيد في الاستبداد فلا تقبلوا بالذل.

يقول سيد قطب: بعض النفوس الضعيفة يخيل إليها أن للكرامة ضريبة باهظة لا تطاق، فتختار الذل والمهانة هربًا من هذه التكاليف الثقال، فتعيش عيشة تافهة رخيصة، مفزعة قلقة، تخاف من ظلها، وتفرق من صداها، يحسبون كل صيحة عليهم، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة! هؤلاء الأذلاء يؤدون ضريبة أفدح من تكاليف الكرامة، إنهم يؤدون ضريبة الذل كاملة، يؤدونها من نفوسهم، وأقْدارهم، وسمعتهم، و من اطمِئنانهم، وكثيراً ما يؤدونها من دمائهم وأموالهم وهم لا يشعرون.

هذه هي الأسباب الرئيسة التي أدت إلى تخلف الأمة، وتأخرها عن ركب الحضارة، وهي في الغالب ليست موكلة إلى شعوب الأمة بقدر ما هي موكلة لحكامها وعلمائها، ودورنا اليوم كبير ومسؤوليتنا عظيمة في إعداد الجيل القادم الذي سيدير شؤون الأمة لينهض بها، وينافس العالم ويصنع مجد الأوطان وعز الأمة

فالتراجع المسلمين أسباب عديدة يأتي على رأسها الأسباب التالية:
-1ذهاب ريح المسلمين قال الله تعالى:وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ] الأنفال:46]. قال جمع من المفسرين الريح الدولة، ولا شك أنه بسقوط الخلافة الإسلامية، تمزقت الأمة الإسلامية وضاعت دولتهم وقوتهم، وأصبحوا دويلات صغيرة، فقدت قرارها، وبسط العدو نفوذه على كثير من بلاد الإسلام فأخذ ثرواتهم، وسلب خيراتهم ورزع الشحناء والبغضاء بينهم، فأصبحوا يعيشون في حروب داخلية متواصلة مما أفقدهم بقية القوة التي يمتلكونها.
-2تغلغل الأفكار الهدامة والأحزاب التي تتبنى مناهج غريبة على الإسلام ومنافية لتعاليمه، وتم ذلك في ظل دعم من قبل أعداء الإسلام وغفلة من علمائه، وجهل من أبنائه، وإذا بالشباب خصوصاً والناس عموماً، يسيرون في طريق التراجع عن الإسلام، ويخفت نور الإيمان في قلوبهم بسبب حملات التشكيك المتواصلة، والإعلام الهابط من تلفاز ومجلات وجرائد وإنترنت وقنوات فضائية. ولا حول ولا قوة إلا بالله.
-3إقصاء الشريعة من الحكم وتنحيتها من الواقع، وقيام بعض دول الإسلام بأخذ دساتير لبلدان كافرة وترجمتها وحكم المسلمين بها. والله تعالى يقول:وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ] المائدة:44.[
-4الهزيمة النفسية أمام الأعداء: وأي أمة لا تستعمر إلا إذا كانت عندها القابلية لذلك. يقول الأمير شكيب أرسلان : من أعظم أسباب انحطاط المسلمين في العصر الأخير فقدهم كل ثقة بأنفسهم وهو من أشد الأمراض الاجتماعية، واخبث الآفات الروحية، لا يتسلط هذا الداء على أمة إلا ساقها إلى الفناء.
-5ظهور بعض الشخصيات القيادية التي لها دورها في المجتمع وقيامها بتنفيذ مخططات أعداء الإسلام والنبي صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن حذيفة بن اليمان : دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها، قلت: صفهم لنا، قال: هم قوم من جلدتنا يتكلمون بألسنتنا .إلا أن هؤلاء المفسدين يلمعون إعلامياً من قبل أعداء الدين والملة ويظهرون بمظهر المصلح الحريص، وصدق الله حيث قال:وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ*أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ] البقرة: 11-12.[
-6افتتان جماهير من المسلمين بالثقافات الغربية، وسعيهم في تقليدهم والنبي صلى الله عليه وسلم يقول :لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم .رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري.
-7حب الدنيا : ومتى ما أحبت النفوس الدنيا وشهواتها ولذائذها انصرفت عن معالي الأمور وانشغلت بسفاسفها وانصرفت عن الآخرة واقبلت على الدنيا وقد أرشدنا النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا الداء العضال في الحديث الذي روه الإمام أبو داود وغيره عن ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: أومن قلة نحن يؤمئذ؟ قال: بل أنتم يؤمئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت.
أما ما ذكرت من وجود بعض الاختلاف بين فصائل العمل الإسلامي فالذي نرجوه من الله تعالى أن يكون هذا الاختلاف اختلاف تنوع لا تضاد.

في سبيل المساهمة الفكرية في ترشيد الحركة الإسلامية وتبصيرها ووضعها ضمن مسارات محددة تضمن لها تحقيق أهدافها في التنمية الحضارية الشاملة، سوف أسلط الضوء على أهم العوامل المطلوبة في الطريق الى النهضة وتحقيق الاصلاح الحضاري لتحقق للأمة الإسلامية طموحاتها في التحضر والتقدم والازدهار وتؤدي دورها الحضاري في هداية البشرية الى سعادتها وخير الدنيا والآخرة، ومن العوامل :

1- فتح باب الاجتهاد.

2- وضوح الرؤية والمنهج.

3- ترسيخ القيم الإسلامية الأساسية، مثل: الحرية. العدل. كرامة الانسان. الاستقامة. الشهادة بمعنى الحضور.

4- التوعية بالمسؤولية المشتركة والتي تقوم بها جميع الشرائح المجتمعية والتخصصات من علماء ومفكرين وعلماء تربية وتجار واعلاميين..الخ.

5- التحرر من الدكتاتورية والتبعية للأجنبي.

6- تنمية الانسان والتأكيد على دور الشباب.

7- تجديد الخطاب الإسلامي ليكون:

- متحرراً من الجمود.
- منسجماً مع مفاهيم ورؤى المشروع الإسلامي الحضاري.
- قادراً على مخاطبة عقول الناس بذهنية ولغة عصرهم.

-جامعاً للمفردات الشرعية ضمن هيكلية متكاملة تكوّن الصورة العامة للتشريع.
-مخاطباً انسانية الانسان وفطرته وعقله ووجدانه.
-يعكس قيم الإسلام الحضارية الراقية في الخطاب.
-منفتحاً على المستجدات الفكرية والسياسية والاجتماعية ونحوها.
-مهتماً بمعالجة قضايا الناس الحيوية وهمومهم اليومية ومشاكلهم الحياتية المختلفة.
-يعكس تطلعاتهم ليعيش الخطاب في صفوف المجتمع ولا يكون غريباً عنه، ويدرك الناس قيمة الإسلام الحنيف كمنهج راق وصراط مستقيم للحياة

أسباب النهوض ومقدمات التنمية الإسلامية

لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها . ليس المراد بهذه المقولة الهجرة من الزمن الحاضر إلى الزمن الخالي، وإنما المراد الوعي بأسباب النهوض الأول، ومناهجه، لنسلكها سبلاً للنهوض الجديد المنشود

لايزال الطريق طويلاً للوصول الى مرحلة النهوض و التحديث . حيث إن أمتنا لم تغادر بعد مرحلة ما بعد التخلف، حتى تقوم بالإقلاع والطيران الى رحاب التقدم وفضائه الواسع، وقد يجد البعض أن وصف التخلف وما بعد التخلف وصمة معيبة مع أن التخلف حالة واقعة لا تختلف في شيء عن المرض، والمريض الذي لا يدرك حالته المرضية لا يبحث عن الشفاء.

إن الأسرار الحقيقية لحضارة الإسلام تأصلت في قيم السلام والمحبة والإخاء والمساواة، واستطاعت هذه القيم أن تجد من يتمرس بها، ومن يحققها ويجسدها بصورة عيانية واقعية لا تقبل الشك والجدل، وإذا كانت العقيدة الإسلامية قد جاءت نموذجاً حضارياً تسعى إليه الشعوب طلباً للحرية وللمساواة والعدالة الاجتماعية، فإن الحضارة العربية الإسلامية، قد ازدهرت مقاماتها على أساس هذه الخلفية التاريخية للممارسة الإسلامية الصادقة. وعندما بدأت الممارسة الحقيقية للقيم الإسلامية بالانحسار بدأت مرحلة التراجع الحضاري وعندما خبا وهج الممارسة الحقيقية لقيم الإسلام ولمبادئ تشريعه العظيم سرعان ما بدأت مرحلة الانحسار التاريخي للوهج الحضاري الإسلامي

المثال والواقع

يقول الدكتور محمد عمارة المفكر والداعية المعروف: (إذا كان من سنن الظواهر الدينية والثقافية والحضارية -دائماً وأبداً- وجود مسافات وفوارق بين المثال- النموذجي، وبين الواقع- الممكن، فإن غيبة الجيل الفريد -المؤسس- الذي تربى في مدرسة النبوة، والذي صنعه الرسول صلى الله عليه وسلم، قد أعقبها تراجع تدريجي في نوعية ومثالية التربية والصياغة . . وزاملت هذا التراجع زيادة حجم النوعية التي لم تترب تربية ذلك الجيل الفريد. . فأخذت شوائب البدع، وثقافات وتصورات الديانات والفلسفات التي أدخلتها الفتوحات إلى داخل الساحة الإسلامية تثمر تشققات فكرية، وصراعات مذهبية، ونزاعات سياسية، وعصبيات عرقية وإقليمية، أخذت تغالب بغلوها الشعوبي أو الباطني أو النصوصي الحرفي وسطية الإسلام وأمته . . ولقد بلغت هذه التناقضات أحياناً- درجة النزاعات المسلحة، وأثمرت -في بعض الأحيان- تمزقات في وحدة الدولة من قبل الشعوب الواقعة في الأطراف . . فانضم الانشقاق على الخلافة المركزية إلى الشقاق على الوسطية الإسلامية، الأمر الذي هدد روابط وحدة الكيان الإسلامي ونموذجه الفكري تهديداً جدياً(

وقد صاحب تصاعد مخاطر تلك التهديدات خطران آخران انضما إليها: أولهما: انغماس كثير من العرب في الترف الذي وجدوا أسبابه في غنى الأقاليم التي فتحوها . . فتحولوا من قوة جهادية خشنة وضاربة إلى مواطنين شغلتهم شواغل الدنيا عن حياة الجهاد . وثانيهما: استمرار وتصاعد التحديات الخارجية.

اقتصاد المجتمع المسلم

يقول الدكتور محمد عزالدين الصندوق العالم والداعية (إن التنمية تستدعي اتخاذ العودة إلى مصاديق النظرة القرآنية إلى اقتصاد المجتمع المسلم، بالإضافة إلى تحقيق قفزة نوعية في وضع قوانين فعّالة وحيّة في إطار التصنيع والاستزراع ، فيوم نستطيع إلقاء القوانين المقيّدة للإبداع والحركة والتي من طبيعتها خدمة أعدائنا، إذا استطعنا ذلك سنجد أنفسنا قد رجعنا إلى حقيقة الدين، أمّا أن نتجمّد على القوانين التي لا تشجّع الصناعة والزراعة والعمل والطموح الصادق، فإننا بذلك لن نتقدم خطوة واحدة . . ونحن إذا قرأنا القرآن الكريم نجده يصرح بأن من مهام نبينا الأكرم محمد صلى الله عليه وآله، إلغاء القوانين الجاهلية التي تقيد حرية الناس وتعبث بعزتهم وكرامتهم. وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ والأغلال التِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالذِينَ آمنوا بِهِ وَعَزرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتبَعُوا النورَ الذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أولئك هُمُ الْمُفْلِحُونَ(الأعراف 157.)

ثم يتابع ماذا علينا لو جعلنا ديننا الإسلامي إطاراً عاماً لمسيرتنا التنموية. .؟ فنأخذ منه بشكل عقلاني ما يحفزنا على العمل الجاد والإخلاص والصدق في المعاملات، وتحري إتقان ما نقوم به وبذل الجهد الفردي والجماعي في تحقيق غايات المجتمع، وتطوير أساليب عمله بالعلم والعمل . بالمقابل نحارب الغش والكذب والرشوة في سلوكنا حتى تتساوى الفرص أمام الجميع للعمل . وهذا ما نتعلمه من أداء الشعائر الدينية كالصلاة التي تعلمنا الاستمرار والدوام والمثابرة على أدائها بإخلاص: بهذه الأساليب العلمية العقلانية يمكننا أن نجعل من الدين أداة للتنمية المستديمة)

عندما يتم تشخيص حال الأمة، فنقول: إنها تعيش محنة كبرى . . ثم يطلب من علمائها تقديم رؤية، لمنهجية متسمة بالواقعية للخروج بالأمة من هذا المأزق الحاد والمزمن . . وذلك لإيقاظ الإنسان العربي والمسلم الغارق في نوم اليقظة فإن هذا يعني صياغة دليل عملي للنهضة العربية الإسلامية المنشودة، يرشد الذين انخرطوا في ساحة العمل إلى هذا المقصد النبيل، ويجتذب من في خارجها إلى هذه الساحة

لقد بدأ الإسلام بتحديد منهاجه في التغيير الكفيل بإخراج الناس من الظلمات إلى النور. . والذي يبدأ بتغيير النفس الإنسانية، وإعادة صياغة الإنسان بالإسلام (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم فالتغيير- سواء في اتجاه التقدم والنهوض، أو في اتجاه التخلف والجمود - إنما يبدأ بالصياغة الإيجابية أو السلبية للإنسان

لكن . . لأن النموذج الإسلامي - في الدين والدولة والحضارة - قد قام في مواجهة تحديات شرسة، مثلتها- بعد الشرك العربي - قوى الهيمنة الكبرى: الفرس والروم . . فقد كانت الفتوحات الإسلامية لإزاحة الهيمنة الكسروية والقيصرية عن المحيط الإسلامي، ضرورة حياة لهذا النموذج الإسلامي الوليد. . وبسبب من عقيدة وروح الجهاد الإسلامي، كانت السرعة القياسية التي تمت بها هذه الفتوحات، التي حررت الشرق من الفرس والروم. . ففي ثمانين عاماً فتح المسلمون أوسع مما فتح الرومان في ثمانية قرون!

الأزمة التعليمية

حاضر العالم الإسلامي يعيش أزمة تعليمية بلغت مبلغاً قصيا، بحيث أصبحت داء متمكناً مستعصياً، من الصعوبة علاجه، نظراً لحدّته واستفحاله في المجتمعات الإسلامية . ناهيك عن أنّ الأزمة التعليمية تفوق في حدّتها أيّ لون آخر من ألوان الأزمات، بوصفها الأزمة الأم في العالم الإسلامي، وإنْ كان عدم الاهتمام بها يُشعر كأنها أقلّ خطراً وأخفّ ضرراً من الأزمات الأخرى، ولا سيما الأزمة الاقتصادية . والسبب في ذلك راجع إلى أنّ التنمية في العالم الإسلامي تكاد تكون محصورة في الجانب الاقتصادي دون غيره من الجوانب الأخرى، وهذا هو سبب فشلها. ومن ثَم، فليس غريباً أنْ تعدّ الأزمة التعليمية السبب الرئيس في التراجع الحضاري للأمة الإسلاميّة، وأن تنمية التعليم سبيل الخلاص من هذا التراجع الحضاري.

نقطة الانطلاق في التنمية الإسلاميّة والنهوض الحضاري إنما تبدأ من التعليم، ومهما حاولنا أو توهمنا أنّ النهوض والتغيير والإصلاح يمكن أنْ يتم خارج مواضع التعليم، فإنّ التاريخ والواقع والتجربة الذاتية والعالمية تؤكد أنّ التربية

والتعليم هما السبيل الأوحد إلى درجة يمكن أنْ نقول معها من دون أدنى تحفظ إنّ التربية هي تنمية بكلّ أبعادها، وأي مفهوم للتنمية بعيداً عن هذا فهو مفهوم جزئي وعاجز عن تحقيق الهدف

وزيادة على ذلك، فإنّ مما يزيد التعليم أولوية من حيث التقديم والاعتناء به قبل غيره أنه يعدّ التنمية الأم لبقية المجالات التنموية، إذ إنّ تعليم الإنسان المسلم وتربيته، يجعله مهيأ للقيام بالعملية التنموية في أيّ المجال، بمعنى أنّ الفرد المتعلم أينما توجهه لا يأتي إلا بخير، فإذا توجه إلى مجال الاقتصاد وأسهم في تنميته وتطويره، وكذلك إذا توجه إلى المجالات الاجتماعية أو المجالات العلمية والتقنية أو غيرها. ومعنى ذلك أنّ التنمية التعليمية تؤدي حتماً إلى تنمية المجالات الأخرى وتسهم مساهمة فعّالة في تطويرها، والعكس ليس بصحيح، لأنّ الواقع التاريخي قديماً وحديثاً يدل على هذا الأمر.

لقد بدأت أمتنا طورها الحضاري العربي الإسلامي بنهوض وازدهار، تعلمت منه الدنيا، ولا نزال نباهي به حتى الآن. . فلماذا حدث استبدال التخلف بالتقدم؟ . . والجمود بالتجديد؟ . . والأزمة بالانطلاق؟ . . والقيود بالانعتاق؟

الجيل الفريد

عندما أقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم أولى الصناعات الإسلامية الثقيلة: صناعة الجيل الفريد، المؤسس للدين، نهض هذا الجيل بتغيير الواقع، وبناء الدولة، وتطبيق الشريعة. . ثم توالى التراكم المعرفي في علوم الدين والدنيا- الشرعية والمدنية- تلك التي كونت الحضارة العربية الإسلامية، التي غيرت وجه الدنيا ومجرى التاريخ

وكان طبيعياً أن تأتي دولة الخلافة الشورية الكاملة والراشدة، على النحو الذي جاءت عليه، لأنها كانت صورة للجماعة التي أعيدت صياغتها بالإسلام

وإذا كان الإحياء هو أكثر المصطلحات تعبيراً عن فعل الإسلام في الإنسان الذي يتدين التدين الصحيح والصحي فإن نقطة البداية لهذا الإحياء إنما محلها نفس هذا الإنسان وقلبه وعقله ووجدانه. . فكل مناهج التغيير ومشاريع التقدم التي تقفز على تغيير النفس، وتربية الضمير، وإعادة صياغة الإنسان بالإسلام، هي حرث في البحر، لا يتجاوز أثرها النخبة التي تبشر بها، لانتفاء القبول لها عند الإنسان، الذي هو المقصد الأول والأعظم لهذا التغيير

التوسعة في الرزق

وفي رحاب الآية الكريمة رَبَنَآ آتِنَا فِي الدنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخرة حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النارِ(البقرة/201) قال المفسرون: الحسنة في الدنيا هي التوسعة في الرزق وحسن الخلق، والحسنة في الآخرة هي رضوان الله والجنّة. فإذا طبق الإنسان المسلم قواعد الأخلاق الطيبة والاعتدال في السلوك، فإنه سيضمن التقدم والتنمية إلى حد لم يكن ليخطر له ببال.

وليس ثمة شك في أننا إذا رجعنا إلى القرآن الحكيم في بصائره ومناهجه. لاستطعنا أن نسبق العالم وأن نكون سادة أنفسنا إن لم نصبح سادة العالم أيضاً

وإذا كان اليأس لا يمكن أن يقترن مع الإيمان، لأنه (لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) . فإن هذه المحنة الحضارية التي تأخذ بخناق أمتنا - على مرارتها - يجب ألا تبعث اليأس من التجدد والنهوض والإصلاح، فحضارتنا الإسلامية-كلغتنا العربية - تمرض . . وتتراجع . . لكنها لا تموت، لأنها ضرورة من ضرورات الدين الخالد والشريعة الخاتمة، اصطبغ فيها النسبي بالخالد، أي الحضارة البشرية بالاعجاز الإلهي المتمثل بالقرآن على النحو الذي ميزها عن غيرها من الحضارات. .

فهي تعرف دورات الازدهار والتراجع ثم الازدهار مرة أخرى.



الاستنباط من القرآن

الشيخ احمد على تركى



ما معنى (الاستِنبَاط)؟

• الاستنباط : أي استِخرَاج ما كان خَفِيًّا ، ليَظهر للعيَان .

ومنه (استنباط الماء) أي: إخراجه من باطن الأرض .

قال الإمام ابن جرير الطبري توفي ٣١٠هـ رحمه الله :

« وكل مُستَخرِج شيئا كان مُستترا عن أبصار العيون أو عن معارف القلوب، فهو له مُستَنبِط ».

• لذلك فالاستنباط من القرآن يُقصَد به:

استِخرَاج ما كان خَفِيًّا من القرآن بطريق صحيح .

مثل المعاني والعلل والدلالات والأحكام والهدايات وغير ذلك مما كان خَفِيًّا.

ماذا تقصد (بطريق صحيح)؟

• لا يكون الاستنباط إلا بعد فهم المعنى وتدبره .

قال الإمام بدر الدين الزركشي -توفي ٧٩٤هـ رحمه الله :

« ومَنِ ادَّعَى فَهمَ أَسرَارِ القُرآنِ ولَم يُحكِمِ التَّفسِيرَ الظَّاهِرَ فَهُوَ كَمَنِ ادَّعَى البُلُوغَ إِلَى صَدرِ البَيتِ قَبلَ تَجَاوُزِ البَابِ ».

• والطريق الصحيح يكون من خلال التفسير ثم التدبر ثم الاستنباط ثم التأكد من صحته ما تم استنباطه وارتباطه بمعنى الآيات .

قال الإمام شمس الدين القرطبي -توفي ٦٧١هـ رحمه الله :

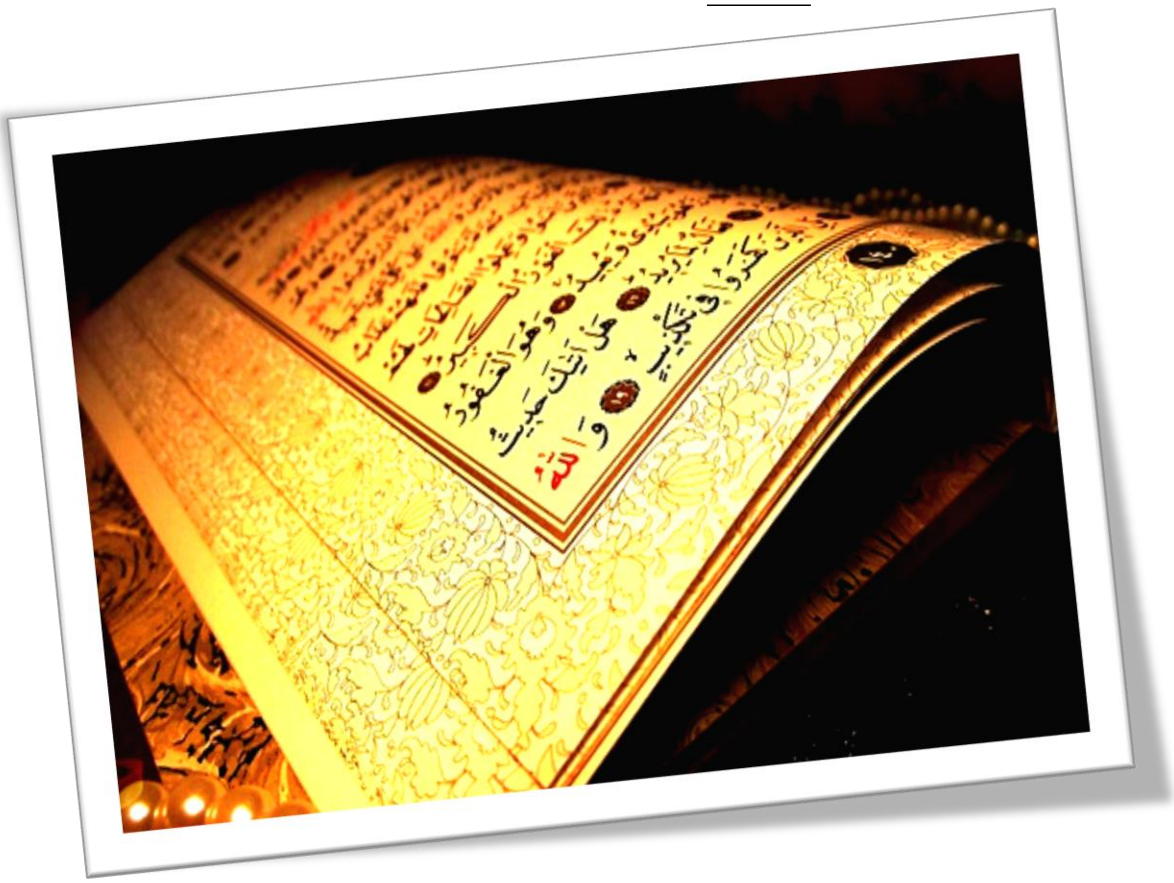
« فمن لم يُحكِمِ ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه ودخل في زمرة القرآن بالرأي والنقل والسماع لابد له منه في ظاهر التفسير أولا ليتقي به مواضع الغلط ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط والغرائب التي لا تُفهَم إلا بالسماع كثيرة ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر ».

• ثم يجب التأكد من أن المعنى المستنبط صحيحا في ذاته ، وأنه يصح ارتباطه بالآية التي استنبط منها إذ ليس كل استنباط يكون صحيحا من جهة المعنى يكون صحيحا من جهة الدلالة، وسيتضح لنا ذلك بمزيد من التفصيل عند ذكر الأمثلة عليه في قادم الأيام بإذن الله.

وهل يتفاوت الناس في فهم القرآن؟

• نعم ، وقد تحدث الإمام ابن القَيّم توفي ٧٥١هـ رحمه الله عن ذلك التفاوت في مراتب الفهم، فقال:

«والمقصود تفاوُت الناس في مراتب الفهم في النصوص ، وأن منهم مَن يفهم من الآية حُكما أو حُكمَين ، ومنهم مَن يفهم منها عشرة أحكام ، أو أكثر من ذلك ، ومنهم من يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ ، دون سياقه ، ودون إيمائه وإشارته وتنبيهه واعتباره ».



وهل اعتنى العلماء بالاستنباط؟

• نعم ، قال الله تعالى :

{ وَإِذا جاءَهُم أَمرٌ مِنَ الأَمنِ أَوِ الخَوفِ أَذاعوا بِهِ وَلَو رَدّوهُ إِلَى الرَّسولِ وَإِلى أُولِي الأَمرِ مِنهُم *لَعَلِمَهُ الَّذينَ يَستَنبِطونَهُ مِنهُم وَلَولا فَضلُ اللَّهِ عَلَيكُم وَرَحمَتُهُ لَاتَّبَعتُمُ الشَّيطانَ إِلّا قَليلًا } [النساء: ٨٣].

• لذلك اعتنى العلماء بالاستنباط من القرآن عناية شديدة ، ولا يكاد يوجد كتاب من كتب التفسير -على سبيل المثال- إلا وفيه عدد كبير من الاستنباطات في شتى أنواع علوم الشريعة من عقيدة وفقه وأصول وتربية وآداب وغيرها ذلك .

فالقرآن والسُّنَّة وما يُستَنبَط منهما هما الأساس لكثير من العلوم .

الاستنباط قَدر زائد على مُجَرّد فَهم اللفظ ، أساسه التدبر القائم على العلم ، والاستنباط من القرآن مستمر لا ينقطع ، ولا يمكن لأحد حصر ما يُستَنبَط من القرآن ، وفي ذلك دليل على مدى بلاغة القرآن وإعجازه للعقول في كل مكان وزمان إلى قيام الساعة .

قـف إنهـا بجلالهـا الآيــات

فيها هدى وسكينة وثبــات

هذا الكتاب فقم به متخشعـا

متدبـرا تصفو هناك عظات

ما الذي يحتاج إليه المُستنبِط؟



• المُستنبِط يحتاج إلى :

حُسن تدبُّر وصحةَ قَصد وقُوَّة فِكر .

قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي ت١٣٧٦هـ رحمه الله :

«... والطريق إلى سلوك هذا الأصل النافع:

أنْ تفهم ما دلَّ عليه اللفظُ من المعاني، فإذا فهمتَهَا فهما جيدا، ففكِّر في الأمور التي تتوقّف عليها ولا تَحصل بدونها، وما يُشتَرط لها.

وكذلك فكِّر فيما يترتّب عليها، وما يتفرّع عنها، ويَنبني عليها ولا تزال تُفكِّر في هذه الأمور، حتى يصير لكَ مَلَكَة جيدة في الغوص على المعاني الدقيقة، فإنّ القرآنَ حق، ولازمُ الحقّ حق، وما يتوقّف على الحق حق، وما يتفرّع عن الحقّ حق .

فمن وُفِّقَ لهذه الطريقة، وأعطاه الله توفيقا ونورا؛ انفتحت له العلوم النافعة، والمعارف الجليلة».

ممكن مثال على ذلك؟

• عندنا سورة يوسف -عليه السلام- فيها الكثير من المعاني المستنبطة التي قد لا ينتبه لها الكثير، ومنها :

أن العلم أشرف ما في الإنسان، وأن جمال العلم يفعل ما لا يفعله جمال الجسم .

وها هو الإمام ابن القيم -ت٧٥٢هـ رحمه الله- يقول حول فضل العلم :

«... أنه سُبحانَهُ جعل في آدم من صِفات الكَمال ما كانَ بِهِ أفضل من غَيره من المَخْلُوقات، وأرادَ سُبحانَهُ أن يظهر لملائكته فَضله وشرفه فأظهر لَهُم أحسن ما فِيهِ وهو علمه فَدلَّ على أن العلم أشرف ما في الإنسان وأن فَضله وشرفه إنَّما هو بِالعلمِ .

ونَظِير هَذا ما فعله بِنَبِيِّه يُوسُف -عَلَيهِ السَّلام لما أرادَ إظهار فَضله وشرفه على أهل زَمانه كلهم أظهر للملك وأهل مصر من علمه بِتَأْوِيل رُؤْياهُ ما عجز عَنهُ عُلَماء التَّعبِير، فَحِينَئِذٍ قدمه ومكنه وسلم إليه خَزائِن الأرض وكانَ قبل ذَلِك *قد حَبسه على ما رَآهُ من حسن وجهه وجمال صورته، ولما ظهر لَهُ حسن صُورَة علمه وجمال مَعرفَته أطلقه من الحَبس ومكنه في الأرض فَدلَّ على أن صُورَة العلم عند بني آدم أبهى وأحسن من الصُّورَة الحسية، ولَو كانَت أجمل صُورَة ».

• فعند النظر في قصة يوسف -عليه السلام- نجد أن منشأ دخوله للسجن هو افتتان النساء بجمال جسمه وأن منشأ خروجه من السجن هو افتتان الملك بجمال علمه .

فكانت نتيجة جمال الجسم » الحبس والضيق، وكانت نتيجة جمال العلم » الحرية والرفعة.

يجب أن نرتقى في تعاملنا مع القرآن، ويجب أن تزداد صحبتنا للقرآن، من خلال القراءة والتدبر وفهم معانيه والعمل بها، فمن ربط حياته بالقرآن ظهرت له من المعاني ما فيها علاج لجميع همومه، وتصحيح لجميع مفاهيمه، وسعادة لجميع حياته.

فَتدبَّرِ القُرآنَ إن رُمتَ الهُدى

فالعِلمُ تحتَ تَدبُّــرِ القُــرآن

أريد مثال يوضح الفرق بين التفسير والاستنباط؟

• قال الله تعالى:

{... اليَومَ أَكمَلتُ لَكُم دينَكُم وَأَتمَمتُ عَلَيكُم نِعمَتي وَرَضيتُ لَكُمُ الإِسلامَ دينًا ...}

[المائدة: ٣].

أولا: التفسير :

• جاء في المختصر في التفسير:

« ... اليوم أكملت لكم دينكم الذي هو الإسلام، وأتممت عليكم نعمتي الظاهرة والباطنة، واخترت لكم الإسلام دينا، فلا أقبل دينا غيره ...».

• وقال ابن عباس -رضي الله عنهما :

« {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}

هو الإسلام، أخبر الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- والمؤمنين أنه أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبدا، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبدا، وقد رضيه الله فلا يَسخَطُه أبدا ».

ثانيا: من أوجه الاستنباط :

• التأكيد على أهمية التمسك بالدين، والتحذير من التفريط فيه .

قال الإمام ابن جرير الطبري -رحمه الله-:

«لما نزلت {اليَومَ أَكمَلتُ لَكُم دِينَكُم}

وذلك يوم الحج الأكبر ، بكى عمر .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ما يبكيك؟

قال: أبكاني أنَّا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذ أكمل ؛ فإنه لم يكمل شيء إلا نقص .

فقال : صدقت ».

• فالفاروق عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- استنبط من هذه الآية أنه سيأتي زمان ينقص فيه التمسك بالدين ، وهذا ما حدث بالفعل بعد ذلك فالفاروق عمر انتبه لمعنى لم يلحظه غيره، وتفاعل معه فبكى ، فلاحظ الرسول -صلى الله عليه وسلم- بكاء عمر، فسأله عن سبب ذلك ، فأخبره عمر بالمعنى الذي استنبطه ، فأكد له الرسول -صلى الله عليه وسلم- صحة ذلك الاستنباط ، فالفاروق عمر بكى أثناء حياة الرسول صلى الله عليه وسلم لغُربَة الدين ، كيف حالنا اليوم ونحن نعيش هذه الغُربَة؟!

• ويشهد لهذا المعنى ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم :

بَدَأ الإسلَام غَرِيبا ، وسَيَعُودُ كما بَدَأ غَرِيبا، فَطُوبَى للغُرَبَاء .

صحيح مسلم (رقم/ ١٤٥).

فبَدَأ الإسلام غريبا بين الناس ، ثم انتَشَر وظَهَر وزالت عنه الغُربَة ، ثم ستعود إليه الغُربَة مرة أخرى، ويصبح المسلم المتمسك بدينه غريبا بين أهله .

وبَشَر الرسول صلى الله عليه وسلم هؤلاء الغُرَبَاء بالجنة .

وفي الحديث بيان بأنه سيأتي زمان يَصِير فيه المتمسك بدينه مُحتَاجا إلى التَّغَرُّب، سواء كانت غُربَة بالأبدان أو غُربَة بالأرواح .

وجاء في (فتاوى اللجنة الدائمة - ٢/ ١٧٠):

«معنى الحديث أن الإسلام بدأ غريبا حينما دعا رسول الله -ﷺ- الناس إليه فلم يستجب له إلا الواحد بعد الواحد ، فكان حينذاك غريبا بغربة أهله، لقلتهم وضعفهم مع كثرة خصومهم وقوتهم وطغيانهم وتسلطهم على المسلمين ، حتى هاجر من هاجر إلى الحبشة فرارا بدينه من الفتن وبنفسه من الأذى والاضطهاد والظلم والاستبداد، وحتى هاجر رسول الله ﷺ بأمر الله تعالى إلى المدينة بعد ما ناله من شدة الأذى ما ناله رجاء أن يهيئ الله له من يؤازره في دعوته، ويقوم معه بنصر الإسلام .

وقد حقق الله رجاءه فأعز جنده ونصر عبده وقامت دولة الإسلام وانتشر بحول الله في أرجاء الأرض ، وجعل سبحانه كلمة الكفر هي السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين، واستمر الأمر على ذلك زمنا طويلا ، ثم بدأ التَّفَرق والوَهن ودَب بين المسلمين الضعف والفشل شيئا فشيئا حتى عاد الإسلام غريبا كما بدأ ، لكن ليس ذلك لقلتهم فإنهم يومئذ كثير ، وإنما ذلك لعدم تمسكهم بدينهم واعتصامهم بكتاب ربهم وتنكبهم هدي رسول الله ﷺ إلا من شاء الله ، فشُغلُهُم بأنفسهم وبالإقبال على الدنيا، فتنافسوا فيها كما تنافس من كان قبلهم ، وتناحروا فيما بينهم على إمارتها وتراثها ، فوجد أعداء الإسلام المداخل عليهم وتمكنوا من ديارهم ورقابهم فاستعمروها وأذلوا أهلها وساموهم سوء العذاب ، هذه هي غربة الإسلام التي عاد إليها كما بدأ بها».

عندما تقرأ قوله تعالى :

{اليَومَ أَكمَلتُ لَكُم دينَكُم وَأَتمَمتُ عَلَيكُم نِعمَتي وَرَضيتُ لَكُمُ الإِسلامَ دينًا}

فافْرَح بكَمَال الدين، واسْعَد بتَمَام نِعمَة الله تعالى على المسلمين، وارْض بالإسلام دينا؛ وهذا ممَّا يُفهَم من تَفسِير الآية .

وانتبه كذلك إلى ضرورة التمسك بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه الكرام حين اكتمل الدين سواء في الاعتقاد أو العبادات أو المعاملات أو غير ذلك ، فَلَا تُفَرِّط في دينك ولا تَبتَدِع فيه ؛ وهذا ممَّا يُستَنبَط من الآية .

هُنَاكَ قَد أَشرَقَت في الأُفقِ نَافِذَةٌ

أطَلَّ مِنْهَـا عَلَى الكَونَيـنِ إسلامُ

مُحَمَّـدٌ وَضُلُـوعُ الغَـارِ حَـانِيَةٌ

اقــرَأْ.. فَقَدْ أَشْقَتِ الإِنْسَانَ آثَامُ

إِنسَــانُ عَصرِكَ مِسكِينٌ تَعَبَّـــدَه

فيِ غَفوَةِ الرُّوحِ أنصَابٌ وَأَزلاَمُ

- يمكن تقسيم الاستنباط من القرآن من حيث مصدره إلى قسمين :

١) استنباط من آية واحدة .

٢) استنباط بالربط بين أكثر من آية

وهو ما يُسَمِّيه الإمام ابن القيم رحمه الله :

دلالةَ التَّركيب .

وقال عنه :

«وهو ضمُّ نصٍّ إلى نصٍّ آخر» .

أذكر مثال على الاستنباط من آية؟

• قال الله تعالى:

{رَبَّنا وَاجعَلنا مُسلِمَينِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسلِمَةً لَكَ وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُب عَلَينا إِنَّكَ أَنتَ التَّوّابُ الرَّحيمُ}

[البقرة: ١٢٨].

{وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا}

أي: بَصِّرنَا بمَعَالِم عِبَادَتِنَا لك ، فأنبياء الله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام طلبا من الله تعالى أن يريهما مناسكهما ، ويدل هذا على أن المناسك إنما تُعلم من الله تعالى بنصٍّ من القرآن أو السنة، ولا مدخل للرأي في معرفة ما هو طاعة الله.

المختصر في التفسير :

«ربنا واجعلنا مُستَسلِمَين لأمرك، خاضعَين لك، لا نشرك معك أحدًا، واجعل من ذريتنا أمة مستسلمة لك ، وعرِّفنا عبادتك كيف تكون ، وتجاوز عن سيئاتنا وتقصيرنا في طاعتك؛ إنك أنت التواب على من تاب من عبادك، الرحيم بهم».

• وبالنظر في هذه الآية يتضح لنا أن الأصل في العبادات أنها توقيفية فلا يتعبد لله بشيء إلا بما شرع.

أذكر مثال على الاستنباط بالربط بين أكثر من آية؟

• قال الله تعالى: {... وَإِنَّكَ لَتَهدي إِلى صِراطٍ مُستَقيمٍ}

[الشورى: ٥٢]

المختصر في التفسير :

«..وإنك لتدلّ الناس إلى طريق مستقيم هو دين الإسلام ».

قال الله تعالى :

{ إِنَّكَ لا تَهدي مَن أَحبَبتَ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهدي مَن يَشاءُ وَهُوَ أَعلَمُ بِالمُهتَدينَ)

[القصص: ٥٦]

المختصر في التفسير :

«إنك أيها الرسول لا تهدي من أحببت مثل أبي طالب وغيره بتوفيقه للإيمان ، ولكن الله وحده هو الذي يوفّق من يشاء للهداية ...».

قال الله تعالى :

{ لَيسَ عَلَيكَ هُداهُم وَلكِنَّ اللَّهَ يَهدي مَن يَشاءُ ...}

[البقرة: ٢٧٢]

المختصر في التفسير :

«ليس عليك أيها النبي هدايتهم لقبول الحق والانقياد له وحملهم عليه ، وإنما تجب عليك دلالتهم إلى الحق وتعريفهم به، فإن التوفيق للحق والهداية إليه بيد الله ، وهو يهدي من يشاء ...».

- وبالنظر إلى مجموع هذه الآيات يتضح لنا أنه توجد نوعان من الهداية هما :

هداية الإرشاد ، هداية التوفيق ويتضح لنا أن :

الهداية المسندة إلى الرسول ﷺ هي هداية الإرشاد لا هداية التوفيق .

أما هداية التوفيق فهي خاصة بالله تعالى وحده .

4_ مثال على الاستنباطات الفقهية :

◉ قال الله تعالى:

{وَمَن أَظلَمُ مِمَّن مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَن يُذكَرَ فيهَا اسمُهُ وَسَعى في خَرابِها أُولئِكَ ما كانَ لَهُم أَن يَدخُلوها إِلّا خائِفينَ لَهُم فِي الدُّنيا خِزيٌ وَلَهُم فِي الآخِرَةِ عَذابٌ عَظيمٌ}

[البقرة: ١١٤].

◉ المختصر في التفسير :

«لا أحد أشدُّ ظلمًا من الذي منع أن يذكر اسم الله في مساجده، فَمَنَعَ الصلاة والذكر وتلاوة القرآن فيها، وسعى جاهدًا متسبّبًا في خرابها وإفسادها؛ بهدمها أو المنع من أداء العبادة فيها ...».

◉ استُنبِط منها :

(جواز منع دخول المساجد لمصلحة).

قال الشيخ ابن العُثَيمِين -ت ١٤٢١هـ رحمه الله :

«... فتغلق الأبواب حماية لها؛ وتارة تغلق أبوابها خوفا من الفتنة، كما لو اجتمع فيها قوم لإثارة الفتن، والتشويش على العامة؛ فتغلق منعا لهؤلاء من الاجتماع، وتارة تغلق لترميمها، وإصلاحها، وتارة تغلق خوفا من سرقة ما فيها؛ ففي كل هذه الصور إغلاقها مباح، أو مطلوب».

القرآن نزل مشتملا على آيات تتضمن الأحكام الفقهية ، وقد اهتم العلماء -رحمهم الله- باستنباط هذه الأحكام وبيان أدلتها .

5_ مثال على الاستنباطات اللغوية :

◉ قال الله تعالى:

{كُتِبَ عَلَيهِ أَنَّهُ مَن تَوَلّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهديهِ إِلى عَذابِ السَّعيرِ}

[الحج: ٤].

◉ المختصر في التفسير :

«كُتِب على ذلك المتمرد من شياطين الإنس والجن أن من اتبعه وصدّق به فإنه يضله عن طريق الحق، ويسوقه إلى عذاب النار بما يقوده إليه من الكفر والمعاصي».

◉ استُنبِط منها :

أن كلمة: [الهُدَى] تستعمل في الدلالة على الخير والدلالة على الشر) .

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -ت ١٣٩٣ هـ رحمه الله :

«... الهُدَى كما أنه يستعمل في الإرشاد والدلالة على الخير، يستعمل أيضا في الدلالة على الشر، لأنه قال :
{وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ}
ونظير في ذلك القرآن قوله تعالى :
{فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ}
وقوله تعالى :
{وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ}
لأن الإمام هو من يقتدى به في هديه وإرشاده».

◉ عدد كلمات القرآن بالرسم العثماني دون الإملائي بالمكررات = ٧٧٦٨٥ كلمة .

بينما عدد الكلمات بدون المكررات = ١٧٤٥٨ كلمة .

بينما عدد كلمات اللغة العربية أكثر من ذلك بكثير .

فاللغة العربية من أغزر اللغات من حيث المادة اللغوية.

القرآن نزل على أفصح اللغة العربية وأبلغها، ولم يحتوي على جميع مفرداتها ، لذلك فالقرآن يستدل به لمعرفة أفصح المعاني ، ويستنبط منه أدق الاستخدامات اللغوية .

٦_ مثال على الاستنباطات التربوية :

◉ قال الله تعالى:

{فَلَولا أَنَّهُ كانَ مِنَ المُسَبِّحينَ • لَلَبِثَ في بَطنِهِ إِلى يَومِ يُبعَثونَ}

[الصافات: ١٤٣ - ١٤٤].

◉ المختصر في التفسير :

«فلولا أن يونس عليه السلام كان من الذاكرين الله كثيرًا قبل ما حل به ، ولولا تسبيحه في بطن الحوت .

• لمكث في بطن الحوت إلى يوم القيامة بحيث يصير له قبرًا».

◉ استُنبِط منها : (أهمية طاعة الله في أوقات الرخاء قبل أوقات البلاء) .

فلما تقرب يونسعليه السلام إلى ربِّه في حال رخائه أنجَاه الله عند بَلَائِه ، فكان تسبيحه لله وكثرة ذكره ودعائه وطاعته في زمن رخائه سبب لنجاته في زمن شدته وبلائه.

وذلك بخلاف فرعون لما تنكَّر إلى ربِّه في حال رخائه لم يُنجِه الله عند بلائه .

قال تعالى :

{وَجاوَزنا بِبَني إِسرائيلَ البَحرَ فَأَتبَعَهُم فِرعَونُ وَجُنودُهُ بَغيًا وَعَدوًا حَتّى إِذا أَدرَكَهُ الغَرَقُ قالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذي آمَنَت بِهِ بَنو إِسرائيلَ وَأَنا مِنَ المُسلِمينَ • آلآنَ وَقَد عَصَيتَ قَبلُ وَكُنتَ مِنَ المُفسِدينَ }

[يونس: ٩٠ - ٩١].

◉ ومَازَال العبد تصيبه الشدائد والكُرَب في الحياة الدنيا وفي حياة البرزخ وفي يوم القيامة ، فإن كان على حُسن صِلَة بالله كَفَاه الله كل ذلك .

قال الله تعالى :

{يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابتَغوا إِلَيهِ الوَسيلَةَ وَجاهِدوا في سَبيلِهِ لَعَلَّكُم تُفلِحونَ}* [المائدة: ٣٥] .

(الْوَسِيلَةَ) أي : القُرْبَة وَالطَّاعَة.

 القرآن هو كتاب التربية الأول لنا ، فمناقشاته تهدي العقول ، ومواعظه توقظ القلوب، ونحن نَحتَاج أن نَتَرَبَّى عليه حتى تَرسَخ معانيه في نُفُوسنا .

▪نموذج على الاستنباط من سورة الكهف :

1_ مثال على الاستنباطات العقدية :

◉ قال الله تعالى :

{وَتَرَكنا بَعضَهُم يَومَئِذٍ يَموجُ في بَعضٍ وَنُفِخَ فِي الصّورِ فَجَمَعناهُم جَمعًا }

[الكهف: ٩٩].

استُنبِط منها :

إثبات البعث والحشر بعد النفخة الثانية في الصُّور؛ بجمع الجن والإنس للحساب في ساحات يوم القيامة .

2_ مثال على الاستنباطات الاعجازية :

◉ قال الله تعالى :

{وَتَحسَبُهُم أَيقاظًا وَهُم رُقودٌ وَنُقَلِّبُهُم ذاتَ اليَمينِ وَذاتَ الشِّمالِ وَكَلبُهُم باسِطٌ ذِراعَيهِ بِالوَصيدِ لَوِ اطَّلَعتَ عَلَيهِم لَوَلَّيتَ مِنهُم فِرارًا وَلَمُلِئتَ مِنهُم رُعبًا}

[الكهف: ١٨].

في الآية الإشارة إلى حكمه الله وقدرته حينما قَلَّبَهم في نومهم تارة يمينا وتارة شمالا للمحافظة على صحة أجسامهم .

واستُنبِط منها:

أهمية تغيير وضعية الجسم باستمرار للوقاية من الأمراض .

فالأشخاص الملازمين للفراش أو الكرسي المتحرك لفترات طويلة تظهر لديهم تقرحات في طبقات الجلد، وتسمى هذه التقرحات :

(قرحة الفراش _ Bedsore) وتكون نتيجة الضغط المطول على الجلد مما يؤدي إلى عدم تدفق الدم بشكل سليم، وبالتالي موت طبقات من الجلد، لذلك يجب تغيير وضعية أجسامهم باستمرار لتجنب ذلك، فعلاج قرحة الفراش أصعب بكثير من منع حدوثها.

3_ مثال على الاستنباطات الأصولية :

◉ قال الله تعالى :

{ قالَ لا تُؤاخِذني بِما نَسيتُ وَلا تُرهِقني مِن أَمري عُسرًا}

[الكهف: ٧٣].

استُنبِط منها :

النسيان لا يقتضي المؤاخذة، ولا يدخل تحت التكليف، ولا يتعلق به حكم .

وعن رسول الله ﷺ أنه قال :

إنَّ اللهَ تعالى وضع عن أُمَّتي الخطأَ والنسيانَ وما اسْتُكرِهوا عليه .

صحيح الجامع (رقم/ ١٨٣٦).

4_ مثال على الاستنباطات الفقهية :

◉ قال الله تعالى :

{فَعَسى رَبّي أَن يُؤتِيَنِ خَيرًا مِن جَنَّتِكَ وَيُرسِلَ عَلَيها حُسبانًا مِنَ السَّماءِ فَتُصبِحَ صَعيدًا زَلَقًا }

[الكهف: ٤٠].

استُنبِط منها :

جواز الدعاء بتلف مال من كان ماله سبب طغيانه وكفره .

5_ مثال على الاستنباطات اللغوية :

◉ قال الله تعالى :

{فَلَمّا بَلَغا مَجمَعَ بَينِهِما نَسِيا حوتَهُما فَاتَّخَذَ سَبيلَهُ فِي البَحرِ سَرَبًا}

[الكهف: ٦١].

استُنبِط منها :

الحوت تطلق على السمكة الصغيرة والسمكة الكبيرة .

ولم يرد في القرآن كلمة : (السمك) .

وإنما ورد : (الحوت، النون، اللحم الطري).

6_ مثال على الاستنباطات التربوية :

◉ قال الله تعالى : {وَلَولا إِذ دَخَلتَ جَنَّتَكَ قُلتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنا أَقَلَّ مِنكَ مالًا وَوَلَدًا}

[الكهف: ٣٩].

استُنبِط منها :

ينبغي لكل من أعجبه شيء من ماله أو ولده أن ينسب هذه النعم إلى الله، وأن يقول: "ما شاء الله، لا قوة إلا بالله" .
❺ الاستِنبَاط من القرآن

- يمكن تقسيم المعاني المستنبطة من القرآن إلى عدة أقسام ، وهي الاستنباطات :

1_العقديــة

2_ الإعجازية

3_الأصولية

4_الفقهيــة

5_اللغويـــة

6_التربوية

١_ مثال على الاستنباطات العقدية :

قال الله تعالى:

{كَلّا إِنَّهُم عَن رَبِّهِم يَومَئِذٍ لَمَحجوبونَ}

[المطففين: ١٥].

المختصر في التفسير :

«حقًّا إنهم عن رؤية ربهم يوم القيامة لممنوعون».

استُنبِط منها :

ثبوت رؤية المؤمنين لله تعالى يوم القيامة .

قال الإمام الشافعي -ت ٢٠٤هـ رحمه الله :

«لما أن حجب هؤلاء في السخط، كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في حال الرضا».

فالكافر محجوب عند رؤية الله تعالى ؛ وذلك عقابا وعذابا له ، وهذا يدل على أن المؤمن يرى الله تعالى وذلك ثوابا ونعيما له ، ورؤية الله تعالى أعظم نعمة ينالها المؤمن .

القرآن يدعونا إلى : (توحيد الله تعالى)، ويستنبط منه العقيدة التي يجب علينا اعتقادها .

2_ مثال على الاستنباطات الاعجازية :

 قال الله تعالى :

{إِنَّ الَّذينَ كَفَروا بِآياتِنا سَوفَ نُصليهِم نارًا كُلَّما نَضِجَت جُلودُهُم بَدَّلناهُم جُلودًا غَيرَها لِيَذوقُوا العَذابَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَزيزًا حَكيمًا}

[النساء: ٥٦]

المختصر في التفسير :

«إن الذين كفروا بآياتنا سوف ندخلهم يوم القيامة نارًا تحيط بهم، كلما أحرقت جلودهم بدلناهم جلودًا أخرى غيرها؛ ليستمر عليهم العذاب، إن الله كان عزيزًا لا يغالبه شيء، حكيمًا فيما يدبره ويقضي به».

 استُنبِط منها معنى إعجازي، فقد أخبرنا الله تعالى أن سبب تبديل الجلود للكافرين في النار هو : {لِيَذوقُوا العَذابَ} .

وفي ذلك إشارة إلى عدم حصول ذلك العذاب عند عدم تبديل الجلود ، وقد قرر العلم الحديث أن الشعور بالألم يبدأ من الجلد، وعند تلف الجلد ينعدم الإحساس بالألم .

 القرآن معجزة الله تعالى الخالدة ، ويستنبط منه الكثير من المعاني المعجزة التي تدل على أن القرآن منزل من الله تعالى .

3_ مثال على الاستنباطات الأصولية :

قال الله تعالى :

{وَلا تَسُبُّوا الَّذينَ يَدعونَ مِن دونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدوًا بِغَيرِ عِلمٍ كَذلِكَ زَيَّنّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُم ثُمَّ إِلى رَبِّهِم مَرجِعُهُم فَيُنَبِّئُهُم بِما كانوا يَعمَلونَ}

[الأنعام: ١٠٨]

المختصر في التفسير :

«ولا تسبوا - أيها المؤمنون - الأصنام التي يعبدها المشركون مع الله، وإن كانت أحقر شيء وأولاه بالسب؛ حتى لا يسب المشركون الله تطاولًا عليه، وجهلًا بما يليق به سبحانه، وكما زُيِّن لهؤلاء ما هم عليه من الضلال زَيَّنا لكل أمة عملهم، خيرًا كان أو شرًّا، فَأَتَوْا ما زَيَّنا لهم منه، ثم إلى ربهم مرجعهم يوم القيامة، فيخبرهم بما كانوا يعملون في الدنيا، ويجازيهم عليه».

استُنبِط منها قاعدة أصولية، وهي قاعدة :

(درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة) فعند اجتماع المصلحة والمفسدة في مسألة واحدة وتكافؤهما يكون درء المفسدة أولى من جلب المصلحة.

واستُنبِط منها أيضا قاعدة:

(سد الذرائع) فيجب قطع الذريعة التي ينجم عنها المفسدة .

قال الإمام نجم الدين الطوفي -ت ٧١٦هـ رحمه الله :

«يحتج بها على سد الذرائع، وحسم مواد الفساد؛ إذ كان معنى الآية: لا تسبوا آلهتهم فيجعلوا ذلك وسيلة وذريعة إلى سب إلهكم».

الله تعالى حرَّم سبَّ آلهة المشركين لكونه ذريعةً إلى سبِّه سبحانه وتعالى، ودرء مفسدة مسبته سبحانه وتعالى أولى من جلب مصلحة سبِّ آلهتهم،* فجاء المنع صريحا قاطعا :

{ولا تَسُبُّوا الَّذينَ يَدعونَ مِن دونِ اللَّهِ}.

القرآن يرشدنا إلى :

(الأصول العامة للإسلام) ويستنبط منه الكثير من الأصول التي تضبط علاقة المسلم مع خالقه ومع نفسه ومع من حوله .

4_ مثال على الاستنباطات الفقهية :

◉ قال الله تعالى:

{وَمَن أَظلَمُ مِمَّن مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَن يُذكَرَ فيهَا اسمُهُ وَسَعى في خَرابِها أُولئِكَ ما كانَ لَهُم أَن يَدخُلوها إِلّا خائِفينَ لَهُم فِي الدُّنيا خِزيٌ وَلَهُم فِي الآخِرَةِ عَذابٌ عَظيمٌ}* [البقرة: ١١٤].

◉ المختصر في التفسير:

«لا أحد أشدُّ ظلمًا من الذي منع أن يذكر اسم الله في مساجده، فَمَنَعَ الصلاة والذكر وتلاوة القرآن فيها، وسعى جاهدًا متسبّبًا في خرابها وإفسادها؛ بهدمها أو المنع من أداء العبادة فيها ...».

◉ استُنبِط منها:

جواز منع دخول المساجد لمصلحة ، قال الشيخ ابن العُثَيمِين -ت ١٤٢١هـ رحمه الله :

«... فتغلق الأبواب حماية لها؛ وتارة تغلق أبوابها خوفا من الفتنة، كما لو اجتمع فيها قوم لإثارة الفتن، والتشويش على العامة؛ فتغلق منعا لهؤلاء من الاجتماع، وتارة تغلق لترميمها، وإصلاحها، وتارة تغلق خوفا من سرقة ما فيها؛ ففي كل هذه الصور إغلاقها مباح، أو مطلوب».

*القرآن نزل مشتملا على آيات تتضمن الأحكام الفقهية، وقد اهتم العلماء -رحمهم الله- باستنباط هذه الأحكام وبيان أدلتها.

5_ مثال على الاستنباطات اللغوية :

◉ قال الله تعالى:

{كُتِبَ عَلَيهِ أَنَّهُ مَن تَوَلّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهديهِ إِلى عَذابِ السَّعيرِ}

[الحج: ٤].

◉ المختصر في التفسير:

«كُتِب على ذلك المتمرد من شياطين الإنس والجن أن من اتبعه وصدّق به فإنه يضله عن طريق الحق، ويسوقه إلى عذاب النار بما يقوده إليه من الكفر والمعاصي».

◉ استُنبِط منها:

أن كلمة : [الهُدَى] تستعمل في الدلالة على الخير والدلالة على الشر .

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -ت ١٣٩٣هـ رحمه الله :

«... الهُدَى كما أنه يستعمل في الإرشاد والدلالة على الخير، يستعمل أيضا في الدلالة على الشر، لأنه قال: {وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ}، ونظير في ذلك القرآن قوله تعالى: {فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ} .

وقوله تعالى:

{وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ}

لأن الإمام هو من يقتدى به في هديه وإرشاده».

◉ عدد كلمات القرآن بالرسم العثماني دون الإملائي بالمكررات = ٧٧٦٨٥ كلمة، بينما عدد الكلمات بدون المكررات = ١٧٤٥٨ كلمة، بينما عدد كلمات اللغة العربية أكثر من ذلك بكثير، فاللغة العربية من أغزر اللغات من حيث المادة اللغوية.

 *القرآن نزل على أفصح اللغة العربية وأبلغها، ولم يحتوي على جميع مفرداتها، لذلك فالقرآن يستدل به لمعرفة أفصح المعاني، ويستنبط منه أدق الاستخدامات اللغوية.

6_ مثال على الاستنباطات التربوية :

◉ قال الله تعالى:

{فَلَولا أَنَّهُ كانَ مِنَ المُسَبِّحينَ • لَلَبِثَ في بَطنِهِ إِلى يَومِ يُبعَثونَ}

[الصافات: ١٤٣ - ١٤٤].

◉ المختصر في التفسير:

«فلولا أن يونس -عليه السلام- كان من الذاكرين الله كثيرًا قبل ما حل به، ولولا تسبيحه في بطن الحوت •

لمكث في بطن الحوت إلى يوم القيامة بحيث يصير له قبرًا».

◉ استُنبِط منها:

أهمية طاعة الله في أوقات الرخاء قبل أوقات البلاء .

فلما تقرب يونس-عليه السلام- إلى ربِّه في حال رخائه أنجَاه الله عند بَلَائِه، فكان تسبيحه لله وكثرة ذكره ودعائه وطاعته في زمن رخائه سبب لنجاته في زمن شدته وبلائه.
وذلك بخلاف فرعون لما تنكَّر إلى ربِّه في حال رخائه لم يُنجِه الله عند بلائه .

قال تعالى:

{وَجاوَزنا بِبَني إِسرائيلَ البَحرَ فَأَتبَعَهُم فِرعَونُ وَجُنودُهُ بَغيًا وَعَدوًا حَتّى إِذا أَدرَكَهُ الغَرَقُ قالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذي آمَنَت بِهِ بَنو إِسرائيلَ وَأَنا مِنَ المُسلِمينَ • آلآنَ وَقَد عَصَيتَ قَبلُ وَكُنتَ مِنَ المُفسِدينَ } [يونس: ٩٠ - ٩١].



◉ ومَازَال العبد تصيبه الشدائد والكُرَب في الحياة الدنيا وفي حياة البرزخ وفي يوم القيامة ، فإن كان على حُسن صِلَة بالله كَفَاه الله كل ذلك .

قال الله تعالى:

{يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابتَغوا إِلَيهِ الوَسيلَةَ وَجاهِدوا في سَبيلِهِ لَعَلَّكُم تُفلِحونَ}.

[المائدة: ٣٥]

(الْوَسِيلَةَ) أي :القُرْبَةَ وَالطَّاعَةَ.

▫ القرآن هو كتاب التربية الأول لنا،
فمناقشاته تهدي العقول، ومواعظه توقظ القلوب، ونحن نَحتَاج أن نَتَرَبَّى عليه حتى تَرسَخ معانيه في نُفُوسنا.

▫▪نموذج على الاستنباط من سورة الكهف

1_ مثال على الاستنباطات العقدية :

◉ قال الله تعالى :

{وَتَرَكنا بَعضَهُم يَومَئِذٍ يَموجُ في بَعضٍ وَنُفِخَ فِي الصّورِ فَجَمَعناهُم جَمعًا }

[الكهف: ٩٩].

استُنبِط منها:

إثبات البعث والحشر بعد النفخة الثانية في الصُّور؛ بجمع الجن والإنس للحساب في ساحات يوم القيامة .

2_مثال على الاستنباطات الإعجازية :

◉ قال الله تعالى :

{وَتَحسَبُهُم أَيقاظًا وَهُم رُقودٌ *وَنُقَلِّبُهُم ذاتَ اليَمينِ وَذاتَ الشِّمالِ وَكَلبُهُم باسِطٌ ذِراعَيهِ بِالوَصيدِ لَوِ اطَّلَعتَ عَلَيهِم لَوَلَّيتَ مِنهُم فِرارًا وَلَمُلِئتَ مِنهُم رُعبًا}

[الكهف: ١٨].

في الآية الإشارة إلى حكمه الله وقدرته حينما قَلِّبَهم في نومهم تارة يمينا وتارة شمالا للمحافظة على صحة أجسامهم، واستُنبِط منها:

أهمية تغيير وضعية الجسم باستمرار للوقاية من الأمراض .

فالأشخاص الملازمين للفراش أو الكرسي المتحرك لفترات طويلة تظهر لديهم تقرحات في طبقات الجلد، وتسمى هذه التقرحات: (قرحة الفراش _ Bedsore)، وتكون نتيجة الضغط المطول على الجلد مما يؤدي إلى عدم تدفق الدم بشكل سليم، وبالتالي موت طبقات من الجلد، لذلك يجب تغيير وضعية أجسامهم باستمرار لتجنب ذلك، فعلاج قرحة الفراش أصعب بكثير من منع حدوثها.

3 _ مثال على الاستنباطات الأصولية :

◉ قال الله تعالى:

{ قالَ لا تُؤاخِذني بِما نَسيتُ وَلا تُرهِقني مِن أَمري عُسرًا}

[الكهف: ٧٣].

استُنبِط منها:

النسيان لا يقتضي المؤاخذة، ولا يدخل تحت التكليف، ولا يتعلق به حكم .

وعن رسول الله -ﷺ- أنه قال:

إنَّ اللهَ تعالى وضع عن أُمَّتي الخطأَ والنسيانَ وما اسْتُكرِهوا عليه .

صحيح.

4_ مثال على الاستنباطات الفقهية :

◉ قال الله تعالى:

{فَعَسى رَبّي أَن يُؤتِيَنِ خَيرًا مِن جَنَّتِكَ *وَيُرسِلَ عَلَيها حُسبانًا مِنَ السَّماءِ فَتُصبِحَ صَعيدًا زَلَقًا }

[الكهف: ٤٠].

استُنبِط منها:

جواز الدعاء بتلف مال من كان ماله سبب طغيانه وكفره .

5_مثال على الاستنباطات اللغوية:

◉ قال الله تعالى:

{فَلَمّا بَلَغا مَجمَعَ بَينِهِما نَسِيا حوتَهُما فَاتَّخَذَ سَبيلَهُ فِي البَحرِ سَرَبًا}

[الكهف: ٦١].

استُنبِط منها:

الحوت تطلق على السمكة الصغيرة والسمكة الكبيرة .

ولم يرد في القرآن كلمة: (السمك)، وإنما ورد: (الحوت، النون، اللحم الطري).

6_ مثال على الاستنباطات التربوية :

◉ قال الله تعالى :

{وَلَولا إِذ دَخَلتَ جَنَّتَكَ قُلتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنا أَقَلَّ مِنكَ مالًا وَوَلَدًا}

[الكهف: ٣٩].

استُنبِط منها:

ينبغي لكل من أعجبه شيء من ماله أو ولده أن ينسب هذه النعم إلى الله، وأن يقول: "ما شاء الله، لا قوة إلا بالله").

❻ الاستِنبَاط من القرآن

يُحكَم بصحة الاستنباط بعد ثبوت أمرين:

1_صحة المعنى المُستَنبَط في ذاته :

2_صحة دلالة الآية على المعنى المُستَنبَط :

فإذا ثبتا كلاهما كان الاستنباط صحيح وإلا كان الاستنباط خاطِئ.

أذكر مثال على الاستنباط الصحيح؟

◉ قال الله تعالى: { وَلِيَعلَمَ الَّذينَ أوتُوا العِلمَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَبِّكَ *فَيُؤمِنوا بِهِ *فَتُخبِتَ لَهُ قُلوبُهُم وَإِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذينَ آمَنوا إِلى صِراطٍ مُستَقيمٍ}

[الحج: ٥٤].

(فَتُخبِت) أي : تَخضَعَ، وتَسكُن.

◉ استُنبِط منها :

الإيمان ثمرة للعلم، والخضوع لأوامر الله تعالى ثمرة للإيمان .

وهذا معنى صحيح في ذاته، والآية تدل عليه.

أذكر مثال على الاستنباط الخاطِئ؟

◉ قال الله تعالى:

{وَاعبُد رَبَّكَ حَتّى يَأتِيَكَ اليَقينُ}

[الحجر: ٩٩].

(اليَقِين) المقصود في الآية هو/ الموت، بإجماع المفسرين.

◉ وقد خالف بعض أصحاب الأهواء الضالة هذا المعنى،* فقالوا: «(اليَقِين) المقصود في الآية هو: (المعرفة)».

وبناء على هذا التفسير الخاطِئ استنبطوا من دلالة مفهوم الغاية في قوله تعالى: {حَتّى يَأتِيَكَ} المعنى الخاطِئ التالي:

«إذا حصلت المعرفة ووصل الإنسان إلى مرتبة (اليَقِين) سقطت عنه العبادات» .

وهذا فهم خاطِئ لا أساس له من الصحة.

◉ وقد استدل الإمام ابن كثير -رحمه الله- بالمعنى الصحيح لهذه الآية على بطلان هذا المعنى الخاطِئ، فقال:

«... ويستدل بها على تخطئة من ذَهَبَ من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم. وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء -عليهم السلام- كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد الناس وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة. وإنما المراد باليقين هاهنا الموت ...».

ختاما :

يمكن إرجاع الأسباب الرئيسية للاستنباط الخاطِئ إلى أمرين:

اتباع الهوى والجهل .

لذلك يحتاج من يطلب الحق إلى:

سلامة القصد وإخلاص النية لله، ثم العلم .

قال الإمام الشافعي –رحمه الله–:

« . . . فحُقَّ على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار من علمه، والصبر على كل عارض دون طلبه، وإخلاص النية لله تعالى في إدراك علمه نصًّا واستنباطا ، والرغبة إلى الله تعالى في العون عليه . . . » .





نحو تدّين خالص، لا مغشوش

أ.د. ناصر احمد سنه



كان المسلمون،أيام أمير المؤمنين الفاروق العادل "عمر بن الخطاب " رضي الله عنه قد اشتكوا من خلط اللبن بالماء . فأرسل الخليفة منادياً ينادي: يا بائعى اللبن لا تَشُوبوا (لاتخلطوا) اللبن بالماء. فتغُشّوا المسلمين، وإن من يفعل ذلك؛ فسيعُاقب عقابًا شديدًا.وذات ليلة خرجأمير المؤمنينمع خادمه "أسلم" ليتفقد، كعادته، أحوالِ المسلمين. واستراح بجانب جدار، فسمع امرأة تقول :قومى إلى ذلك اللبن فامذقيه (اخلطيه) بالماء.فقالت أخري: يا أُمَّتَاه، ما علمتِ ما كان من عَزْمَة (أمر)أمير المؤمنين اليوم؟!. قالت الأم: وما كان من عزمته؟ .قالت: أمر مناديًا فنادي : لا يُشَابُ اللبن بالماء.فقالت الأم: يا بنتاه، قومى إلى اللبن فامْذقيه بالماء فإنك في موضع لا يراك "عمر"، ولا منادى "عمر".فقالت الصبيّة: واللَّه ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء . إن كان "عمر" لا يرانا، فرب أمير المؤمنين يرانا .فلما سمع "عمر" ذلك، أعجب بالفتاة لورعها ومراقبتها لله رب العالمين . وقال:يا أسلم، علِّم الباب، واعرف الموضع . ثم مضي . فلما أصبح قال : يا أسلم، امضِ إلى الموضع فانظر: من القائلة، ومن المقول لها، وهل لهما من بعل؟. فذهب أسلم، فوجد امرأة عجوزًا، وابنتها أم عمارة، وعلم أنْ ليس لهما رجل. ثم عاد فأخبره. فدعا "عمر" رضي اللّه عنه أولاده، فقال: هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أزوّجه. ولو كان بأبيكم حَركة إلى النساء ما سبقه منكم أحد إلى هذه الجاريةفقال "عبد اللَّه":لى زوجة.وقال أخوه "عبد الرحمن": لى زوجة . وقال "عاصم": يا أبتاه لا زوجة لى فزوِّجني .فبعث إلى الجارية فزوّجها من "عاصم"، فولدت لعاصم بنتًا، ولدت هذه البنت ابنة صارت أمًّا "لعمر بن عبد العزيز" الخليفة الراشد الخامسرضى اللَّه عنه. إنها "أم عمارة بنت سفيان بن عبد اللَّه بن ربيعة الثقفي"التي خَلَّدت اسمَها فى التاريخ بإخلاص "تدينها"للَّه تعالى الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . والذى أكرمها فى الدنيا بزواجها من ابن أمير المؤمنين، وجعل من نسلها أميرًا للمؤمنين.

وفي اللغة: كلمة (الدِّين): اسم جامع لكل ما يتدين به. تؤخذ تارة من فعل متعد بنفسه :" دانه يدينه "، وتارة من فعل متعد بالباء:"دان به"، وتارة من فعل متعد باللام:"دان له" . فـ (دَانَ)- ديناَ : أطاع وخضع وذل، و (دَانَ) فلاناً : حاسبه وجازاه، و(دَانَ) بكذا: اتّخذه ديناَ، وتعبد به، فهو دَيِّنٌ . و(تديّن) بعقيدة : دان بها و"دان له ": أطاعه وخضع له . فكلمة "الدين" عند العرب تشير إلي علاقة بين طرفين يعظم أحدهما الآخر، ويخضع له . فهي خضوع وطاعة وخشوع وتعبد وانقياد لصاحب أمر وسلطان، وحُكم وإلزام. والرباط الجامع بين الطرفين هو "الدستور" المُنظم لتلك العلاقة، أو المظهر الذي يعبر عنها. وهي لزوم الإنقياد لكل الأوامر واجتناب كل النواهي رغبة في رحمته ومثوبته، ورهبة من محاسبته ومجازاته.

أما "التدين" فهي "الحالة النفسية / المعنوية، والبدنية / الظاهرية " التي تمتزجان فعا في تنفيذ جملة مبادئ الدين.. عقيدة وعبادة، شعيرة وشريعة، أخلاقا ومعاملة، قيماً وسلوكاً الخ . و"التدين " اصطلاحاً : "تنفيذ وتلبية وخضوع وانقياد لوضع إلهي يرشد إلي الحق في الإعتقادات، وإلي الخير في السلوك والمعاملات . ويسوق ذوي العقول السليمة بإختيارهم إلي الصلاح في الحال، والفلاح في المآل " (راجع د. محمد عبد الله دراز: الدّين، بحوث ممهدة لدراسة

تاريخ الأديان، د.ت.).غير هذا "التدين" قد يشوبه علل وأمراض فلا يصبح خالصاً لله تعالي كما أمر:"فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ" (غافر: 14)، ويقول تعالي: "وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ" (البينة:5). وعن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه"(متفق عليه).

"التدين المغشوش".. أسباب، ومظاهر

وعلل وأدواء "التدين " لها أسبابها، ومظاهرها، وسبل علاجها . فأسباب "التدين المغشوش ": ضعف الإيمان، والإبتعاد عن أجواء زيادته وتقويته، وأتباع الهوي، والبعد عن القدوات الصالحة، والتقصير في طلب العلم النافع، وطول الأمل، والأفراط في الشهوات، والوقوع في الشبهات، والتهاون بالوجود في مناخات إقتراف المعاصي الخ .فعَنْ ثَوْبَانَ-رضي الله عنهَ- :عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا .قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ .قَالَ" أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا"(رواه ابن ماجه في سننه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم:505،وصحيح ابن ماجه برقم:3442). وذلك مصداق الآية الكرية: "يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً"(النساء108).

وأما مظاهره: قسوة القلب، وضيق الصدر، وقلة الورع، والظلم والخيانة، وضياع الأمانة، وعدم اتقان العبادات، وضياع أثرها ومقاصدها، والتكاسل عن الطاعات، والإجتراء علي المعصيات، ومخالفة الأفعال للأقوال، وعدم البر بالآباء، و"التطفيف" الإجتماعي، والكيل بمكيالين، والغفلة، واليأس عند الإبتلاءات وعدم الغضب لله، والكبر والغرور بالنفس، والجدال والمراء، وعدم الإعتراف بالقصور، وحب الظهور، والشقاق وانفصام عري الأخوة، والشح والبخل، وعدم تحمل المسئولية، والسلبية والفساد والإفساد، وقلة الإهتمام بأمور المسلمين، وعدم البر بالأوطان، والإفلاس من الصالحات: وكما في الحديث الذي رواه أَبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ" قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ : "إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ "(أخرجهمسلم، والترمذي ، وقال: حسن صحيح).



وتتفاوت وتتباين تداعيات "التدين المغشوش" بين من يغُش اللبن بالماء، ومن يغش المسلمين، وبين من يزور وثيقة رسمية، ومن يزور إرادة أمة .وبين من يكذب علي أخيه، ومن يكذب علي الناس، وبين من يُدلس علي رجل، ومن يدلس بإعلام كاذب مُضلل،وبين "وضيع " يسرق ديناراً، و "شريف " يسرق شعباً. وبين من يغامر في عمل لا يجيده، وبين من يتعمد توسيد الأمر لمن ليس كفأُ له . وبين من يفسد نفسه، ومن يفسد (أو يساهم) مجتمعاً وشعباً. كما إن "الحديث اليومى فى الدين لم يجعل البعض متدينين حقيقين ".فعلي سبيل المثال شهر رمضان الكريم.. شهر التعبد والتراحم والجود والكرم، يحاول البعض افراغه من مضمونه كي يتحول إلى حالة صاخبة يتنافس فيها على بث وترويج كل ما هو غث وردىء . وبينما نري موظفاً يتوقف عن العمل ساعة

للصلاة، ثميُقصر في آداء واجباته الوظيفية، وتزداد الرشوة لتصبح لغة تعامل يومي .وثمة كثير من المظاهر اليومية المُعاشة تشير إلي أن مظاهر "التدين الشكلي " أمر، ومقاصد التدين الحقيقي أمر آخر . فموظف يتوقف عن العمل ساعة صلاة الظهر، وفى الوقت نفسه يُقصر في آداء واجباته الوظيفية، وتزداد الرشوة لتصبح لغة التعامل الرسمى.

نحو تدين خالص

الخروج من التدين الشكلي/ المغشوش إلي الخالص غير المشوب، لا يتم إلا بالإيمان الخالص لله، واستشعار عظمته، والخضوع الكامل لعبوديته، والإستقامة علي مقتضيات ذلك.. جوهراً وشكلاً، معني ومبني، فعلا وقولا، سراُ وجهراً الخ. فينبغي اقتران الأقوال بالأفعال، وطلب العلم، وقصر الأمل، وتعظيم حرمات الله، والإكثار من العبادات، للحفاظ على مكتسبات الإيمان، وزيادتها بتنفيذ الهدي القرآن الكريم، والسنة النبوية المُطهرة . وضبط الشهوات، ودرء الشبهات، وإعطاء القدوات ، ورأب التصدعات . وتطبيق شعائر وشرائع الإسلام .. إخلاصاً،وتقوي،وإحساناً ، وصدقاً ،وذكراً، وصبراً،وتعاوناً،وتواضعاً، واعتدالا ، وتوازناً ويقظة ، وجدية ، وتواضعاً ، وتورعا ، وبراً ، وقناعة ، وأمانة الخ .. فيما يتعلق بالعلاقة والصلة بالله تعالي، ثم بالنفس، ثم بالآخرين، ثم بالكون كله، والبشرية جمعاء .مع مداومة محاسبة النفس، النصح والتناصح والإصلاح، يقول عز من قائل: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (آل عمران :110). وبث الإرادة الجازمةالمداومة علي إصلاح "أدواء التدين"دون عجز أو يأس:"وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ" (يوسف:87).





ما هو الحل ؟

الباحث محمود يوسف



اذا اعطينا نظرة عامة على الواقع الحالي لن نستطيع أن نقول شيء غير أن الإسلام هو الحل.

كل الايدلوجيات الحالية فشلت في تحقيق السعادة للأنسان ،سواء المسيحية أو العلمانية كلاهما فشلوا في إسعاد الشعوب.

اولا : المسيحية.
الديانة المسيحية لا تنفصل عن ما يسمى (الاكليروس) يعني طبقة الكهنة ورجال الدين ،فسيادة المسيحية تعني سيادة رجال الدين والكهنة الذين يتوسطون بين الخالق والإنسان.
وهذه السيادة التي يتسيدها طبقة الكهنة على الإنسان تعني الاستبداد والقمع والظلم ،وقد عانت أوروبا بسبب تلك الطبقة بحروب أهلية مات فيها الملايين من الشعب الاوروبي ، فمن الحمق أن يطلب الغربيين برجوع هذه السيادة التي كلفتهم الملايين من الأرواح !

بالإضافة إلى ذلك أن المسيحية في ذاتها هو دين يبعد الإنسان عن الحياه وبيشجع على الرهبنة والابتعاد عن الدنيا ويحض على الذهاب الى الكهوف في أعماق الصحراء والعيش فيها.

و بعد العلمانية التي ظهرت في أوروبا صار الكهنة أنفسهم علمانيين والعديد من الكنائس صارت أوكار للدعارة بل أصبح رجال الدين أنفسهم يزوجون الرجال بالرجال والنساء بالنساء !!!!

حتى أن كثير من الكنائس صارت تشغل الاغاني وتسمح بالرقص في قلب الكنيسة نفسها لتعمل على جذب المسيحيين إليها !

هذا يعني أن رجال الدين بدل انهم يقودوا المسيحيين إلى الاخلاق والقيم والايمان بالله،اصبحت الشعوب بأهوائها وشهواتها هي من تقود رجال الدين إلى حيث شاءوا !

والله المستعان.

ثانياً : العلمانية.

بعد المهزلة التي أحدثتها الكنيسة في أوروبا في العصور الوسطى استبدل الغرب سيادة العلمانية بسيادة المسيحية ،وفصلوا الدين تماماً عن الحياه وجعلوا العقل فقط هو المخول له بتفسير الأمور فصارت السيادة للعقل وحده.

وظنوا أن السعادة التي افتقدوها تحت حكم المسيحية ستظهر مع حكم العلمانية ،ولكن للاسف الواقع يشهد على عكس ذلك !

فالدول العلمانية وخاصة المتقدمة منها هي أكثر الدول انتحارا في العالم ،بل المثير للدهشة أن الدول العلمانية المتقدمة خرجت منها الفلسفة التشاؤمية مثل فلسفة الفيلسوف الألماني (شوبنهاور).

فللأسف العلمانية والتقدم وثورة الاختراعات والأستكشافات لم يحققوا السعادة للأنسان ،لأنهم في الحقيقة نظروا إلى الجانب المادي له وتغاضوا عن الجانب الروحي !

****

هنا كان الاسلام ولا غيره

الإسلام هو الدين والايدلوجية الوحيدة التي وازنت بين متطلبات الجسد ومتطلبات الروح ،بين الحياه المادية للأنسان والحياه المعنوية.

فالأسلام هو الوسط بين روحانية المسيحية ومادية العلمانية.

يقول الله تعالى:(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) (سورة :القصص)

آية واحدة لخصت ما يجب على الإنسان فعله ،وهو العمل للأرض والعمل للسماء ،فالعمل في الأرض سيقيم حضارة تفيد حياه المسلم الأرضية ،والعمل للسماء سينعش روح المسلم ويجعله سعيد مع قربه من الله.



شروط لا اله الا الله

الأستاذ احمد السيد



بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، أَمَّا بَعْدُ، فإن هذا اللقاء الثالث من الدورة التأصيلية للمسائل العقدية عقلا ونقلا المرحلة الثانية، وقد تحدثنا في اللقاء الأول على فطرية الوجود الإلهي وتطرقنا إلى مفهوم الفطرة وأقسامها وأنواعها، ومعنى فطرية الوجود الإلهي باختصار شديد، وسيأتي تفصيل ذلك في المرحلة الثالثة، ثم تحدثنا في اللقاء الثاني عن أول واجب على المكلف وكونه هو لا إله إلا الله، وما يتعلق بها من مسائل، واليوم سنتحدث بإذن الله تعالى عن شروط لا إله إلا الله، ولكن حتى نتحدث عن شروط لا إله إلا الله لابد من مقدمات مهمة لبيان موقع الكلمة المقدسة "لا إله إلا الله" من الإيمان، لذا لابد من الحديث عن الإيمان المثبت في الكتاب والسنة وأنواعه، والإيمان المنفي وأنواعه، سواء في لغة العرب أو الوحي، والحديث عن درجات الإيمان، وأي شعبة من شعب الإيمان تكون لا إله إلا الله، ثم الحديث التفصيلي عن شروط لا إله إلا الله عند المتقدمين من العلماء، وعند المتأخرين، لأنه هناك فرق في شروط لا إله إلا الله عند المتقدمين وعند المعاصرين والمتأخرين عموماً، ونظرا لطول بيان هذه المقدمات وهذه المسائل لأهميتها، سنقسم هذا الدرس لجزئين بإذن الله تعالى.

وهذا اللقاء يمكن أن نقسمه إلى عدة نقاط:

النقطة الأولى: الإيمان الثابت في الوحي وأنواعه.

النقطة الثانية: معرفة أنواع النفي في الكتاب والسنة. "وهذان النقطتان مهمتان جداً جداً جداً لفهم النفي والإثبات ابتداءً في الكتاب والسنة"

الإثبات: متعلق بإثبات الإيمان -ما هو نوع الإيمان المثبت في الكتاب والسنة-

وأنواع النفي عموماً في لغة العرب، وفي الكتاب والسنة أيضاً. -فهذان النقطتان مهمتان جداً-

النقطة الثالثة: لا إله إلا الله من أي شعبة من شعب الإيمان؟

ثم بعد ذلك النقطة الرابعة شروط لا إله إلا الله، وتفصيل ذلك.

النقطة الأولى: الإيمان الثابت في الوحي وأنواعه:

أي ما ورد فيه إثبات الإيمان، فالمؤمن في النصوص الشرعية، هذه الكلمة -المؤمن أو الإيمان- ترد في نصوص الوحي بثلاثة معاني:

المعنى الأول: تأتي بمعنى المؤمن الكامل، أو المؤمن المطلق -يعني الإيمان المطلق-:

أي: الفاعل للواجبات التارك المحظورات أو المحرمات، تصديقا والتزاما وعملاً، يعني لم يفعل ذلك إلا تصديقاً والتزاماً -امتثالاً- وعملاً بالجوارح، وهذا هو المؤمن الممدوح المستحق للوعد بالجنة السالم من الوعيد. أي أن هذا هو الإيمان الكامل أو المطلق الذي يحصل به الوعد بدخول الجنة ابتداءً بلا عذاب، لن يحاسب، الذي فعل كل الواجبات وترك كل المحظورات هذا هو المؤمن الكامل أو المؤمن المطلق الذي يحصل به الوعد بدخول الجنة ابتداءً بلا عذاب، وهو يكون مع فعل كل الواجبات وترك المعاصي والمحرمات. وفي هذا المعنى يقول الإمام الطبري:" المعنى الذي يستحق به مؤمن بإطلاق هو الجامع لمعاني الإيمان، وذلك بأداء جميع الفرائض لله تعالى ذكره من معرفة وإقرار وعمل ".
فهذا هو المؤمن التام الإيمان الكامل، الذي يأتي بالمعرفة، سواء علم القلب وتصديقه وعمل القلب والإقرار باللسان وهو القول بالشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله) والعمل (من طاعات ونوافل ونحوها من أعمال الجوارح).
وأيضاً يقول الإمام النووي:" فالمعنى الذي يستحق به العبد المدح والولاية من المؤمنين هو إتيانه بهذه الأمور الثلاثة، التصديق بالقلب والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح، وذلك أنه لا خلاف بين الجميع أنه لو أقر وعمل على غير علم منه، ومعرفة بربه، لا يستحق اسم المؤمن، ولو عرفه وجحد بلسانه وكذب ما عرف من التوحيد ما يستحق اسم مؤمن، ولذلك إذ أقر بالله تعالى ورسوله، ولم يعمل بالفرائض، لا يسمى مؤمنا بالإطلاق، يعني لا يسمى مؤمن مطلق، وإن كان في كلام العرب يسمى مؤمنا بالتصديق، فذلك غير مستحق في كلام الله لقوله عز وجل:" إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ"
إذاً: من أقر بالله وبرسله ولم يعمل بالفرائض، لا يسمى مؤمناً كامل الإيمان، أو مؤمنا إيماناً مطلقاً، بل نسميه مؤمناً ناقص الإيمان.
والمقصود بالتصديق هنا -في كلام الإمام النووي في هذه الأمور الثلاثة التي هي التصديق والإقرار باللسان والعمل بالجوارح- المقصود به هنا هو التصديق الإذعاني، أي ما يسمى بالتصديق الإذعاني، وسيأتي كلام أهل العلم على ذلك -التصديق الإذعاني أي يقصد به قول القلب وعمل القلب- كما هو قول الإمام الآجري عن التصديق بالقلب فقط فالمقصود بالتصديق هنا التصديق المستلزم لعمل القلب وعلم القلب، التصديق المستلزم لعمل القلب وانقياده وخضوعه وكما هو قول ابن رجب أيضاً وغيره من أهل العلم كما سأنقل عنهم بإذن الله بالتفصيل في الجزء الثاني من هذا اللقاء.
وفي هذا المعنى أيضاً يقول الإمام ابن نصر المروزي في كتابه تعظيم قدر الصلاة: "اسم المؤمن قد يطلق على وجهين، اسم بالخروج من الكفر والدخول في الإسلام، وبه تجب الفرائض الذي أوجبها الله على المؤمنين ويجري عليه الأحكام والحدود، التي جعلها الله بين المؤمنين، واسم يلزم به كمال الإيمان وهو اسم ثناء وتزكية، يجب به دخول الجنة والفوز من النار" وهذا هو الشاهد في كلام الإمام محمد نصر المروزي، قوله:" واسم يلزم به كمال الإيمان وهو اسم ثناء وتزكية، يجب به دخول الجنة والفوز من النار"
هذا هو المعنى الأول، أن المؤمن الذي أتى بالثلاثة التصديق المتضمن قول القلب وعمله والإقرار باللسان والاعمال الصالحة من الطاعات ونحوها، هو المستحق للجنة بلا عذاب.
وضابط معرفة هذه النصوص التي تدل على الإيمان المطلق أو الكامل:
أي: ضابط التعرف على نصوص الوعد الذي يستحق بها الإنسان الجنة بلا عذاب، كيف نتعرف هذه النصوص؟، هذه النصوص التي ترد بهذا المعنى تأتي على وجهين:
الوجه الأول: المدح والتزكية والثناء عليه -على المؤمن-
الوجه الثاني: الوعد بالجنة والسلامة من النار.
أي عندما يأتي مدح وتزكية في النصوص أو وعد بالجنة أو سلامة من النار = يكون المقصود به المؤمن الكامل التام الذي يدخل الجنة ابتداءً بلا عذاب، والمستحق للوعد السالم من الوعيد.
1 -كما في قوله تعالى:" إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ " الآية، وفي الآخرة:" أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ " فهذا مدح وفي الآخرة قال "أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ " والدرجات = وعد بالجنة، " وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ " فهذا سلامة من النار.
فكلمة "إنما المؤمنون" هنا المقصود بها = (المؤمن الكامل) وهذا نص عليه ابن تيمية في أول كتاب الإيمان حيث جعل المؤمن الحق في هذه الآية من فعل كل الواجبات وترك كل المحرمات، واستحق الجنة بلا عذاب، لأنه في الآية 1 – مدح وثناء وتزكية (كما بينت في المقدمة)، 2 - وتوعد بالجنة، 2 – والسلامة من النار، هذا اسمه المؤمن الكامل، لأن في الآية كلها مدح وتزكية وثناء عليهم والآية بها مدح وثناء وتزكية " لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ " قال ابن تيمية في هذه الآية:" ...المؤمن حقاً هو الفاعل للواجبات التارك للمحرمات"، فكما بينا: الفاعل للواجبات والتارك للمحرمات هو الذي أتى بالإيمان الكامل، أو المطلق، الذي يستحق الجنة بلا عذاب.

ومن الآيات الصريحة فيمن يدخل الجنة بلا عذاب ولا عقوبة، قوله تعالى:" ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ" فاطر:32. قال ابن تيمية في هذه الآية: "والمقتصد والسابق كلاهما يدخل الجنة بلا عقوبة، بخلاف الظالم لنفسه. وهكذا من أتى بالإسلام الظاهر مع تصديق القلب؛ لكن لم يقم بما يجب عليه من الإيمان الباطن؛ فإنه معرض للوعيد"، فهنا يقول ابن تيمية أن المؤمن المقتصد والسابق بالخيرات كلاهما يدخل الجنة بلا عقوبة ولا عذاب، ثم قال من أتى بالإسلام الظاهر - أي بقول الشهادتين مع تصديق القلب المستلزم لعمل القلب من انقياد وخضوع والتزام وامتثال لأوامر الله سبحانه وتعالى ونواهيه فهذا معه أصل الإيمان ظاهراً وباطناً، ولكنه لم يقم بما يجب عليه من الإيمان الباطن، أي ليس معه كمال أو فرع الإيمان الباطن الواجب، فهو معرض للعقوبة والوعيد، وسيأتي تفصيل عملية التلازم بين الظاهر والباطن في الاثبات وفي النفي وأنواع التلازم في شرح كتاب الإيمان لابن تيمية بإذن الله، وإن كنا سنبين التلازم بين الظاهر والباطن في التكفير في نواقض الإيمان - إيمان لا إله إلا الله.

ومن الآيات التي تدل على هذا النوع من الإيمان الكامل أو المطلق الذي صاحبه يفعل كل الواجبات ويترك كل المعاصي والمحرمات ومن ثَّم يدخل الجنة بلا عذاب ولا عقاب

2 -كقوله تعالى:" إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا"، ففي هذه الآية أيضاً "الضابط الذي تحدثنا عنه" ثناء ومدح وتزكية ووعد بالجنة، وكما بينا فإن ضابط معرفة النصوص الدالة على هذا النوع من الإيمان الكامل أو المطلق إما ثناء ومدح وتزكية أو وعد بالجنة والسلامة من النار.

3 -وكقوله تعالى:" إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " فهما ثناء ومدح.

ومن يطع الله سبحانه وتعالى ورسوله، طبعاً هو المؤمن الحق، لذا أثنى الله عليهم ومدحهم فهم المفلحون. قال القرطبي في تفسير هذه الآية:" قال ابن عباس: أخبر بطاعة المهاجرين والأنصار، وإن كان ذلك فيما يكرهون؛ أي هذا قولهم، وهؤلاء لو كانوا مؤمنين لكانوا يقولون سمعنا وأطعنا" انتهى كلام القرطبي. والمقصود هنا أنه لا يطع الله والرسول حتى بما يكرهه إلا المؤمن الكامل الايمان، وأثنى الله عليهم فهم المفلحون، ولن يكون من المفلحين إلا وهو حاصل له الوعد بالجنة.

وأيضاً من هذا النوع من الإيمان:

4 -كما في قوله تعالى:" وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ "

5 - وكما في قوله تعالى:" يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" فهنا وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار، وكما بينا من كان هذا حالة ووصفه فهو المؤمن كامل الإيمان أو صاحب الإيمان المطلق.

6 -وكما في قوله تعالى:" قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ، وَالَّذِينَ هُم عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُروجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ، وَالَّذِينَ همْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ..." الآية.

فهذه الآية توضح أن المؤمن هو الكامل الذي يفعل الطاعات كلها، فهم الوارثون الذين يدخلون جنة الفردوس، ففيه ثناء وتزكية وفيه وعد لهم بالجنة بل أعلى الجنة وهو جنة الفردوس.

ويقول ابن تيمية: -بمثل هذا النوع من الإيمان- "وَقَدْ قَالَ فِي آيَةِ الْبِرِّ: {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} فَجَعَلَ الْأَبْرَارَ هُمْ الْمُتَّقِينَ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ وَالتَّجْرِيدِ وَقَدْ مَيَّزَ بَيْنَهُمَا عِنْدَ الِاقْتِرَانِ وَالتَّقْيِيدِ فِي قَوْلِهِ: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى} وَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ مُسَمَّى الإيمان وَمُسَمَّى الْبِرِّ وَمُسَمَّى التَّقْوَى عِنْدَ الْإِطْلَاقِ وَاحِدٌ فَالْمُؤْمِنُونَ هُمْ الْمُتَّقُونَ وَهُمْ الْأَبْرَارُ...

ثم قال ابن تيمية بعدها: "وَهَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ الْأَبْرَارُ الْأَتْقِيَاءُ هُمْ أَهْلُ السَّعَادَةِ الْمُطْلَقَةِ وَهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ الَّذِينَ وُعِدُوا بِدُخُولِهَا بِلَا عَذَابٍ وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " {مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا وَمَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا} " فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ هَؤُلَاءِ -أي ليس من هؤلاء الذين وعدوا بدخول الجنة بلا عقاب ولا عذاب- ؛ بَلْ مِنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ الْمُعَرَّضِينَ لِلْوَعِيدِ أُسْوَةَ أَمْثَالِهِمْ."

فالسعادة لها أصل ولها كمال، مطلق السعادة والسعادة المطلقة، مطلق السعادة -أصل السعادة- في الدخول إلى الإسلام، أما السعادة المطلقة هي دخول الجنة ابتداء بلا عذاب.

فكل هذه الآيات السابقة مدح وثناء وتزكية وفي النهاية وعد بالجنة وسلامة من النار.

فهذا هو المعنى الأول الذي يأتي بلفظ المؤمنين في الاثبات

1 – إما يأتي بمدح وثناء ووعد بالجنة. -وهذه المسائل والضوابط مهمة جداً جداً جداً، ولعله لم يتكلم بمثل هذه التفاصيل أغلب المشايخ المعاصرين، فلم أقف على من يتحدث بمثل هذه التفاصيل، فهي مسائل مهمة جداً لتدرك ما هو نوع الإيمان المثبت في الكتاب والسنة وهكذا سنأخذ في المنفي، ما هو نوع الإيمان المنفي، في اللغة وفي

الكتاب والسنة، فهذه ضوابط مهمة جداً جداً في بيان مسائل الإيمان، ومن ثم معرفة أي نوع منها في شروط لا إله إلا الله، لكونها أصل الإيمان، فلا إلاه إلا الله وما تتضمنه من قول القلب وعمل القلب كما سنأخذ هي أصل الإيمان-
2 – أو تأتي وعد وثناء عليه فقط، وليس فيه ذكر بوعد بالجنة ولا السلامة من النار، ولكن تكون الوعد بالجنة والسلامة من النار من لوازم ذلك، كما في قوله صلى الله عليه وسلم:" أسلم الناس وآمن عمرو" وهو في الحديث يمدح عمرو والحديث رواه أحمد في المسند والترمذي في سننه والألباني صححه.

هذا هو المعنى الأول من معاني إثبات الإيمان -(المؤمن) في الكتاب والسنة- المراد به الذي يأتي به المؤمن كامل الإيمان المؤمن الممدوح المستحق للوعد السالم من الوعيد ونصوص هذا ضابطه تأتي على وجهين:
الوجه الأول: مدح وثناء وتزكية ووعد بالجنة.
الوجه الثاني: وعد وثناء وتزكية فقط أو الوعد بالجنة فقط.
المعنى الثاني: الذي يأتي فيه الإيمان مثبتا في الوحي.
وهذا المعنى الثاني المقصود به كل من دخل في الإسلام وخرج من ملل الكفر، بغض النظر عن مرتبته في الإيمان (يسمى مؤمنا) حتى لو لم يستكمله، أي: لم يستكمل الإيمان، فهذا يشمل المؤمن الكامل والمؤمن الناقص، فمجرد أنه يخرج من ملل الكفر ويدخل في الإسلام (دين الله) يسمى مؤمنا، والهدف والغرض من هذا الإيمان في الكتاب والسنة = الإخبار على أنه من جملة المصدّقين، ووصفه بكونه مؤمنا موحدا، وله أحكام المؤمن الموحد في الدنيا والآخرة، وليس الغرض المدح والثناء-كما في المعنى الأول-فيدخل في ذلك -المعنى الثاني- ناقص الإيمان وكامله، وكل من دخل في الإسلام وخرج من ملل الكفر، سواء كان ناقص الإيمان أو كامل الإيمان، سواء معه أصل الإيمان فقط أو أصل الإيمان وبعض الأعمال أو جاء بكل الإيمان بفعل كل الطاعات واجتناب كل المحرمات.
وفي هذا يقول الإمام ابن نصر المروزي في كتابه تعظيم قدر الصلاة: "اسم المؤمن قد يطلق على وجهين، -والوجه الأول هو الذي نتحدث عنه في هذا المعنى- اسم بالخروج من الكفر والدخول في الإسلام، وبه تجب الفرائض الذي أوجبها الله على المؤمنين ويجري عليه الأحكام والحدود، التي جعلها الله بين المؤمنين"
وهذا كما بينا كل من دخل في الإسلام وخرج من ملل الكفر، فهذا نفس الكلام للإمام ابن نصر المروزي.
ضابط معرفة هذا المعنى:
وهذا المعنى:
1 -يأتي غالبا في نصوص الأحكام والحدود والفرائض. -كما بين الإمام ابن نصر المروزي-
2 -وكذلك نصوص التي فيها نداء للمؤمنين.
3 -وأيضا النصوص التي تتكلم على المؤمنين في مقابل الكفار وغير ذلك.
وليس المقصود أنه يتحدث عن مرتبة في الإيمان كامل أم ناقص؟ لا، ليس هو المقصود في هذا المعنى، بل كل مقصوده وهدفه أن هذا الرجل خرج من ملة الكفر ودخل في الإيمان، سواء كان كاملا أم ناقصا.
1 -وهذا مثل قوله تعالى:" فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ " وقد أخطأ المرجئة في فهم هذه الآية -كما سنبين فيما بعد-، فلو رقبة مؤمنة ولكن فاسقة تدخل أم لا في اسم الإيمان بالمعنى السابق؟ الجواب أنها تدخل، فهذا المقصود بها "الرقبة المؤمنة" سواء كانت كاملة الإيمان أو ناقصة الإيمان.
2 -وكقوله تعالى:" وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا " فسماهم مؤمنين، مع وجود القتال، والقتال كبيرة من الكبائر، ومع ذلك فهم مؤمنين، ولكن مؤمنون ناقصي الإيمان، فيدخل أيضاً في كلمة المؤمنين هنا بمعنى كل من دخل في الإسلام وخرج من ملل الكفر سواء كان ناقصاً أو كاملاً كما بينت.
3 – وكقوله تعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ"، فهذا نداء للمؤمن الناقص للإيمان من أصحاب المعاصي والفساق، وأيضاً الكامل للإيمان.
4 -وكقوله تعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ "
فهل هذا النداء للمؤمنين الكاملي الإيمان وليس للفاسق ولا شارب الخمر والزاني؟ الجواب لا، بل لكل من دخل في ملة الإسلام وخرج من ملة الكفر، فهي هذه الآية ألصق بالفساق، كأن الآية تقول للفساق: أنتم مؤمنين قوموا إلى الصلاة، فيدخل فيها الاثنان.
5 -وقوله تعالى:" وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ".
6 -وقوله صلى الله عليه وسلم عند البخاري:" لا يدخل الجنة إلا مؤمن" وفي لفظ:" إلا مسلم"، إذاً: المقصود بكلمة المؤمن في الحديث الأول -لا يدخل الجنة إلا مؤمن- الذي رواه البخاري في المغازي المقصود به المسلم أي كل من دخل دين الله الذي هو الإسلام.
والرواية الأخرى "لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة" تدل على أثر كلمة "مؤمن" كل من دخل في الإسلام وخرج من ملل الكفر.

7 -وقوله صلى الله عليه وسلم:" تُعرضُ أعمال الناس في كل جمعة مرتين، يوم الاثنين ويوم الخميس، ويغفر لكل عبد مؤمن، إلا عبد بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: ألا تركوا هاتين حتى يفيء "، وعند مسلم " يغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئا"

فكلمة مؤمن في "فيغفر لكل عبد مؤمن" = هي لا يشرك بالله شيئا" في الرواية الأخرى وهذه اللفظة في مسلم، فتفسر المراد من كلمة "مؤمن" أي أن المقصود بها "كل من دخل في الإسلام"

8 -وقوله تعالى أيضاً في هذا المعنى: " وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا "

فلو قتل مؤمن فاسد مثلاً -فهذا مؤمن فاسد-، فهل يدخل تحت هذا الوعيد؟ بلى يدخل تحت هذا الوعيد، فمن قتل مؤمن، المقصود بها من قتل مسلماً -أياً كان-، أي كل من دخل في الإسلام ونطق بالشهادتين.

وأيضاً يدخل في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم:" كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا من مات مشركا أو مؤمن قتل مؤمنا متعمدا"، فهنا سمى القاتل مؤمنا مع إن القتل أكبر الكبائر بعد الشرك بالله سبحانه وتعالى.

وقوله صلى الله عليه وسلم:" لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مؤمن بغير حق"

وحديث النبي صلى الله عليه وسلم اعتقها فإنها مؤمنة" المقصود بها أنها موحده دخلت في الإسلام بغض النظر عن رتبتها في الإسلام هل إيمانها ناقص أم كامل؟

والأدلة على ذلك كثيرة جدا، فكل النصوص السابقة إطلاق الإيمان فيها غير مشعر بمدح -لا يوجد فيه مدح- بقدر ما هو وصف لصاحبه بكونه مؤمنا من جملة المصدقين، وفي ذلك يقول الإمام القاسم بن سلام في كلام جميل له: "وأما على أحكام الدنيا فإنهم يسمون أهل الملة جميعا مؤمنين لأن ولايتهم وذبائحهم وشهادتهم ومناكحتهم" انظر الإيمان ص21.

فهذا نص واضح صريح منه بقوله: "فإنهم يسمون أهل الملة جميعا مؤمنين"، كما بينا، كل من دخل في ملة الإسلام.

وكذلك عندما ذكر الأثرم للإمام أحمد بن حنبل احتجاج المرجئة يقول النبي صلى الله عليه وسلم:" اعتقها فإنها مؤمنة" الإمام أحمد أجابه بأن المراد حكمها في الدنيا أنها مؤمنة، لم يرد أنها مؤمنة عند الله تستحق دخول الجنة بلا نار إذا لقيته بمجرد هذا الإقرار"

وأكرر كما أكرر كل مدة، هذه المسائل مهمة جداً في بيان مذهب أهل السنة والجماعة ابتداءً في مسألة أول واجب على المكلف ولا إله إلا الله ومسائل الإيمان عموماً فيما سنتحدث عنه إن شاء الله في كتاب الإيمان لابن تيمية أو في كلام كثير جداً لابن تيمية وليس في كتاب الإيمان فقط، فمثل هذه المسائل تجعلنا نفهم الكثير من كلام ابن تيمية في هذا الباب، لذلك أحاول أن أفصله بتفصيل، إلى جانب ان هناك إشكالات عند المعاصرين في مثل هذه المسائل، وفي مسائل التكفير التي سنتحدث عنها وفي ضوابط التكفير، وفي النفي -نفي الإيمان- الذي سيأتي الآن في بيان ما هو النفي وكيفية النفي ونحو ذلك وأنواع النفي، حتى نفهم فيما بعد في المرحلة الثالثة عندما نتحدث عن التطبيقات العملية للتكفير والاستغاثة ونحو ذلك، يعني المسائل التي يخالفنا فيها الأشاعرة وأهل الكلام ونحو ذلك، فيكون عندك من الأصول الكلية التي بها نفهم هذا الكلام، بل بمجرد أصلاً الكلام عنها ستفهم ذلك فوراً، لأن هذه الأصول من يفهمها ويتقنها سيفهم ما سنتحدث عنه فيما بعد.

نعود لكلام الإمام أحمد عندما سأله الأثرم عن احتجاج المرجئة في قول النبي صلى الله عليه وسلم "اعتقها فإنها مؤمنة" فأجابه الإمام أحمد: بأن المراد حكمها في الدنيا أنها مؤمنة، لم يرد أنها مؤمنة عند الله تستحق دخول الجنة بلا نار إذا لقيته بمجرد هذا الإقرار.

فكما بين ابن تيمية، أي أن الإيمان الظاهر الذي يجري عليه الأحكام في الدنيا لا يستلزم الإيمان الباطن الذي يكون صاحبه من أهل السعادة في الآخرة.

فالنبي صلى الله عليه وسلم إنما حكم بإيمانها في الظاهر، ورتب عليها حكما دنيويا لصلاحيتها للعتق عند قوله "اعتقها فإنها مؤمنة"، ولذلك الإمام ابن بطة في حديث:" ومن سرته حسناته وساءته سيئاته فهو مؤمن، قال معنى قوله مؤمن أراد أنه مصدق". والمقصود مصدق بقلبه وما يستلزمه من الانقياد والامتثال أي عمل القلب وموجب ذلك بالقول بالشهادتين وهو الإقرار باللسان، بغض النظر هل هو مستكمل الإيمان أم لا كما بينا.

ولذلك قال ابن تيمية عن الفاسق الملي:" الفاسق يدخل في اسم الإيمان في مثل قوله تعالى:" فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ " وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله:" إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ " الآية.

فهنا ابن تيمية سماه الإيمان المطلق، فاسم الإيمان عندما يطلق يراد به الإيمان الكامل التام، ويمكن يراد به الإيمان الناقص -كما سنبين في الفرق بين مطلق الإيمان والإيمان المطلق أو الكامل-" المجموع (151/3) وانظر الواسطية، وهذا النص موجود في مجموع الفتاوى جمع عبد الرحمن بن قاسم، وفي بعض الكتب الذي شرحت الواسطية مثل الشيخ هراس والسلمي والعثيمين، النص قال ابن تيمية في هذه الشروح -يعني الكلام المنقول عن ابن تيمية في هذه الشروح- :" الفاسق الملي يدخل في اسم الإيمان المطلق في مثل قوله:" فتحرير رقبة مؤمنة".

إذا المعنى الثاني يقصد به كل من دخل في الإيمان، سواء كان مؤمن كامل الإيمان أو ناقص الإيمان، ولم يكن المقصود الكلام عن رتبته في الإيمان، ولكن الكلام على أن هذا يجري عليه أحكام الإيمان، فقد دخل في الإسلام مثله كمثل باقي المسلمين.

المعنى الثالث -في الإيمان المثبت في الكتاب والسنة-: كل من أظهر الإيمان على اختلاف درجاتهم في تحصيل الإيمان.
فهو عبارة عن القسمين السابقين أي المؤمن الكامل الإيمان والمؤمن المصدق (التصديق الإذعاني الباطني من علم القلب وعمله وتصديق اللسان) + ويضاف إليهما في هذا القسم المنافق.
فيدخل فيه المؤمن في أقل درجات الإيمان -الذي هو المصدق بالباطن بعلم القلب وعمل القلب والإقرار باللسان الذي هو قول لا إله إلا الله- + والمؤمن في أعلى درجات الإيمان -الذي هو الإيمان الكامل في أعلى درجاته كما بينا في المعنى الأول- + ويدخل فيه المنافق = وضابط هذا يكون غالبا في نصوص الخطاب بالإيمان، وفي هذا يقول ابن تيمية:" فَالْخِطَابُ بِالْإِيمَانِ يَدْخُلُ فِيهِ " ثَلَاثُ طَوَائِفَ":1- يَدْخُلُ فِيهِ الْمُؤْمِنُ حَقًّا -الذي هو كما بينت الإيمان الكامل الذي يفعل كل الطاعات ويترك كل المحرمات-، 2- وَيَدْخُلُ فِيهِ الْمُنَافِقُ فِي أَحْكَامِهِ الظَّاهِرَةِ وَإِنْ كَانُوا فِي الْآخِرَةِ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ، وَهُوَ فِي الْبَاطِنِ يَنْفِي عَنْهُ الْإِسْلَامَ وَالْإِيمَانَ وَفِي الظَّاهِرِ يَثْبُتُ لَهُ الْإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ الظَّاهِرُ-إذاً المنافق هو الذي يقول بلسانه ولم يؤمن في قلبه، سواء لم يكن في قلبه محبة لله سبحانه وتعالى يعني منفي عنه التصديق إما علم القلب أو عمل القلب أو منفي عنه أعمال القلوب فقط، ولكنه في بلسانه يقول نعم أنا أؤمن بسيدنا محمد وأؤمن بالله سبحانه وتعالى فهذا من المنافقين-؛ 3- -والثالث الذي يدخل فيه الخطاب في الإيمان كما بين ابن تيمية، فنحن قلنا أن الخطاب يدخل فيه ثلاثة طوائف كما بين ابن تيمية، يدخل فيه المؤمن الحق الذي هو المؤمن الكامل الإيمان، ويدخل فيه المنافق الذي يقول بلسانه ولكن عمل القلب منفي عنه، وقد يكون علم القلب منفي عنه أيضاً، فالثالث- وَيَدْخُلُ فِيهِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا وَإِنْ لَمْ تَدْخُلْ حَقِيقَةُ الإيمان فِي قُلُوبِهِمْ؛ لَكِنْ مَعَهُمْ جُزْءٌ مِنْ الإيمان وَالْإِسْلَامِ يُثَابُونَ عَلَيْهِ.
ثُمَّ قَدْ يَكُونُونَ -يعني هؤلاء الذين أسلموا وإن لم تدخل حقيقة الإيمان في قلوبهم لكن معهم جزء من الإيمان والاستسلام يثابون عليه، يعني عندهم بعض الطاعات، لذلك قال ثم قد يكونون- مُفْرِطِينَ فِيمَا فُرِضَ عَلَيْهِمْ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مِنْ الْكَبَائِرِ مَا يُعَاقَبُونَ عَلَيْهِ كَأَهْلِ الْكَبَائِرِ لَكِنْ يُعَاقَبُونَ عَلَى تَرْكِ الْمَفْرُوضَاتِ -يعني الصنف الأول من القسم الثالث يدخل فيه الذين أسلموا هؤلاء قد يكونوا يفعلون بعض المعاصي ويتركون الواجبات التي عليهم ولكنهم لم يفعلوا الكبائر فهم تركوا فقط المفروضات فهذا هو النوع الأول منهم- وَهَؤُلَاءِ كَالْأَعْرَابِ الْمَذْكُورِينَ فِي الْآيَةِ وَغَيْرِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ قَالُوا: آمَنَّا -فقالوا لا إله إلا الله محمد رسول الله وعندهم أصل تصديق القلب وقول القلب وعلم القلب وأصل أعمال القلوب، ولكنهم لم يقوموا بما أمرهم به ظاهراً وباطناً- مِنْ غَيْرِ قِيَامٍ مِنْهُمْ بِمَا أُمِرُوا بِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا -الذي هو الإيمان الواجب، القلبي الواجب ولا هو الإيمان الظاهر- فَلَا دَخَلَتْ حَقِيقَةُ الإيمان فِي قُلُوبِهِمْ وَلَا جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ كَانَ دَعَاهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى الْجِهَادِ.
وَقَدْ يَكُونُونَ -النوع الثاني- مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ الْمُعَرَّضِينَ لِلْوَعِيدِ؛ كَالَّذِينَ يُصَلُّونَ وَيُزَكُّونَ وَيُجَاهِدُونَ وَيَأْتُونَ الْكَبَائِرَ؛ وَهَؤُلَاءِ لَا يَخْرُجُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ؛ بَلْ هُمْ مُسْلِمُونَ وَلَكِنْ بَيْنَهُمْ نِزَاعٌ لَفْظِيٌّ: هَلْ يُقَالُ: إنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ كَمَا سَنَذْكُرُهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ؟"
فهنا يقصد أن القسم الثالث هم الذين نقول عنهم أنهم مسلمون ولكن هما نوعان، نوع لم يأت بالفرائض ولكن لم يفعل الكبائر، فهؤلاء لم يأتوا بما أمروا به بطاناً وظاهراً، ولكنهم مسلمين، والنوع الثاني أنهم أتوا بالكبائر، وفعلوا المحرمات، فهؤلاء من أهل الكبائر المعرضين للوعيد، مع أنهم يصلون ويزكون ويجاهدون في سبيل الله وهكذا فيفعلون الواجبات التي عليهم، ولكن الإشكال عندهم في الكبائر، فلذلك هم معرضين للوعيد، فهؤلاء "القسم الثالث" هل نقول عنهم أنهم مسلمون؟ نعم هذا باتفاق، ولكن النزاع اللفظي هل يقال أنهم مؤمنون أم لا؟ فكما سنأتي إن شاء الله هم مؤمنون ناقصي الإيمان، وسيأتي بيانه بإذن الله في الدرجة الثانية من درجات الإيمان.
إذاً: هذا بالنسبة للإيمان المثبت في الكتاب والسنة وأنواعه. هذه النقطة الأولى في هذا اللقاء.

النقطة الثانية: معرفة أنواع النفي في الكتاب والسنة وفي لغة العرب عموماً.

النفي في لغة العرب يأتي على الوجوه التالية:

الوجه الأول يأتي لانتفاء الذات، النفي الآن -وهذه الأشياء مهمة جداً يا إخوة في فهم كلام الله سبحانه وتعالى، فعندما تقرأ في كتاب الله سبحانه وتعالى وفي السنة فتقرأ قوله تعالى "يا أيها الذين آمنوا" تعرف ما هو المؤمن، تعرف المعنى المقصود بهذا المؤمن، كما بينا في النقطة الماضية، وهكذا في النفي، عندما ينفي الله سبحانه وتعالى الإيمان عن قوم وأنت تقرأ في المصحف تفهم كتاب الله سبحانه وتعالى، بغض النظر عن فهمك لهذه المسائل وباب الإيمان عموماً، فنفهم بمثل هذه الضوابط الكتاب والسنة-

قلنا النقطة الثانية معرفة أنواع النفي في الكتاب والسنة، وقلنا أن النفي يأتي على الوجوه التالية:

الوجه الأول: يأتي لانتفاء الذات، أو انتفاء الأصل أو الركن (أي المسمى نفسه):

ويسمى نفي الوجود أو الذات أو الأصل -يسمى هكذا-، لأن مسمى الاسم غير موجود أصلا، ونعطي أمثلة على ذلك:

1 -كمن يسألك عن وجود رجل معين عندك فتقول له ليس بموجود، فهذا نفي للوجود، وهذا ظاهر مراد.

2 -وكما في قوله تعالى عن المنافقين في النفاق الأكبر:" وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ " فسياق الآية عن النفاق الأكبر، فنفى عنهم الإيمان، والمنافقون ليس في قلوبهم إيمان أصلا، فالمنفي أصل الإيمان، فانتفى عنهم الإيمان لأنهم كفار في الباطن، والكفر في الباطن هو زوال التصديق أو زوال أعمال القلوب -كما بينا-، وبالنسبة للمنافقين هو زوال لأعمال القلوب عندهم وان كانوا مصدقين بقلبهم ولسانهم فقط.

3 -وكقوله تعالى على المنافقين أيضا:" قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا -فنفس الكلام في الآية عن المنافقين فنفى الإيمان عنهم كما في تتمة الآية- أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا " -نفى الإيمان عن المنافقين، وهذا دل على زوال أصل الإيمان عندهم.

4 -ومنها قوله تعالى:" يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا" هذا في المخلدين من النار فنفي عنهم أصل الخروج، فهنا انتفى عنهم الأصل، نفي الأصل، أو نفي الوجود، أو نفي الذات، كل ذلك بمعنى واحد، يأتي لانتفاء الذات، أو الركن، أو الأصل، أو الوجود.

5 -ومنها قوله صلى الله عليه وسلم من حديث على رضى الله عنه:" لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع، يشهد أن لا إله إلا الله، وأني محمد رسول الله بعثني بالحق ويؤمن بالموت والبعث بعد الموت ويؤمن بالقدر" كل هذا رواه الترمزي وابن ماجة في القدر ولذلك المباركفوري في شرح الحديث قال:" نفي أصل الإيمان أي ما يعتبر ما عندهم من نفي التصديق القلبي حتى يؤمن بأربع. قال القاري نقلا عن مظهر:" المراد بهذا الحديث نفي أصل الإيمان لا نفي الكمال فمن لم يؤمن بواحدة من هذه لم يكن مؤمنا"

6 -ومنه قوله صلى الله عليه وسلم من حديث جابر:" لا يؤمن بالموت حتى يؤمن بالقدر خيره وشره" فالإيمان في هذه النصوص معناها وجود الكفر الأكبر أي أصل الإيمان غير موجود.

إذاً المنفي هنا هو أصل الإيمان.

الوجه الثاني – وسيأتي طبعاً ما هو أصل الإيمان وما هي درجات الإيمان ونحو ذلك بالتفصيل إن شاء الله، ثم يأتي نواقض الإيمان، فأنا أريد أن أرتب أذهانكم، كيف نفهم الأشياء المثبتة في الكتاب والسنة، وكيف نفهم النفي في الكتاب والسنة ونحو ذلك-

الوجه الثاني من وجوه النفي في لغة العرب وبالتالي في الكتاب والسنة لأنهما بلسان عربي مبين: يأتي النفي لانتفاء الحقيقة المقصودة:

أي الفائدة المقصودة، فقد يوجد المسمى ولكن الحقيقة المقصودة من المسمى -أي: الفائدة المقصودة- غير موجودة.

إذاً الكلام الآن عن الفائدة المقصودة، انتفاء الحقيقة المقصودة أو الفائدة المقصودة، يعني المسمى موجود، ولكن الحقيقة المقصود أو الفائدة المقصودة غير موجودة، وبالأمثلة يتضح المقال:

1 – كما في قوله صلى الله عليه وسلم للمسيء في صلاته "صل فإنك لم تصل" مع أن هذا الرجل صلى بالفعل في الواقع، ولكن الحقيقة المقصودة من الصلاة وهي الخشوع الذي لا يتأتى إلا بطمأنينة القلب غير موجودة، لذا قال لم تصل، وصل مرة أخرى فإنك لم تصل، لأن الفائدة من الصلاة التي فعلها غير موجودة بدون الخشوع والطمأنينة التي هي ركن من أركان الصلاة وشرط في صحتها، إذاً: الصلاة موجودة، فهو في الواقع صلى بالفعل، ولكن الحقيقة المقصودة والفائدة المقصودة من الصلاة التي هي الخشوع والطمأنينة غير موجودة، فبالتالي انتفت الصلاة، ونفيه صلى الله عليه وسلم كان نفياً للفائدة منها والحقيقة منها وليس نفياً لوجود الصلاة.

2 – وكما في قوله تعالى:" فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ " أي لا أنساب نافعة، فنفى الفائدة، مع إن الأنساب التي بينهم هي الموجودة في الدنيا هي الموجودة في الآخرة، ولكن نف عنهم ذلك يعني أن هذه الأنساب لا تنفعكم.

3 – وكما في قوله تعالى:" وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ" مع أنهم يسمعون ويعقلون وإلا لسقط التكليف، ومع ذلك لما انتفى المقصود من السمع والعقل، وهو الانتفاع بما يسمع وبما يعقل، أصبح السمع والعقل بمثابة العدم، فتنفى، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى عنهم:" لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ " لماذا؟ رغم وجود السمع والبصر ولكن الفائدة من وجود السمع والبصر منتفية، إذاً: المسمى موجود، ولكن الحقيقة المقصودة والفائدة المقصودة من السمع والبصر غير موجودة، فلذلك انتفى عنهم، ولذلك قالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير، فنفى عنهم السمع والبصر، لماذا؟ لنفي الحقيقة المقصودة من السمع والبصر، الانتفاع أصلاً بما يسمع وما يبصر، فهم لم ينتفعوا بذلك، ولهذا انتفى عنهم.

هذه أشياء جيدة تعينك على فهم الكتاب والسنة، وفي نفس الوقت تفهم ما هو الإيمان المثبت، وما هو الإيمان المنفي بخصوص الإيمان، وطبعاً يفيدك في أغلب المسائل المثبتة والمنفية، وليس فقط في الكتاب والسنة، وليس فقط في مسائل الإيمان، ولكن أنا أتيت بها لفهم المقصود من الإيمان.

4 – ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم:" رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش". فنفى عنه الصيام لأن (الحقيقة المقصودة والفائدة من الصيام -وهي لعلكم تتقون- غير موجودة وهذا من نفي الشيء في صيغ الحصر، إلا الجوع والعطش، إذاً انتفى عنهم، رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، لماذا؟ لأن الحقيقة المقصودة والفائدة المقصودة من الصيام وهي لعلكم تتقون ليست موجودة، وبالتالي انتفى عنه الفائدة المقصودة وليس وجود الصيام، فهو موجود، ولكن انتفى عنه الفائدة المقصودة من الصيام.

5-وابن فارس ذكر أمثله كثيرة في كتابه ص435. والصاحبي: لابن فارس هو الأصل الذي أخذ منه الثعالبي هذه الأمثلة وهم من أئمة اللغة.

6 – وكما يقال للولد الذي يعوق أباه إذا بلغ منه الأذى = "ما هو بولد" مع إنه ابن من صلبه، لكن انتفى الاسم لانتفاء الفائدة المقصودة وهي البر أي صلة الرحم وبر بالوالدين، فعندما لم يكن هناك بر لوالديه وليس هناك صلة رحم إذاً انتفت عنه هذه الصفة، فيقول ما هو بولدي، وفي اللغة يجوز ذلك، وهذا انتفاء للفائدة المقصودة وليس انتفاء للوجود، فهو بالفعل ولد له.

7 – وهناك آية جمعت بين نفي الأصل ونفي الفائدة، وهي: قوله تعالى:" ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ " فلا يموت موتاً صريحاً وهذا نفي لحقيقة الموت، مع أنهم لن يموتوا لأن أهل النار لن يموتوا، إذاً: نفى الموت الصريح "ثم لا يموت" الموت الحقيقي، فأهل النار لن يموتوا، وهذا نفي لحقيقة الموت ووجوده، وقوله:" ولا يحيى" هذا نفي للفائدة أي لا يحيا حياة طيبة وهذا هو المقصود من الفائدة، إذاً: "ثم لا يموت فيها" نفي لحقيقة الموت، و "لا يحيى" هو نفي للفائدة من الحياة، يعني الحياة الطيبة، وهو المقصود من الحياة، أو الفائدة من الحياة.

الوجه الثالث: أو النوع الثالث من النفي في اللغة وهو أن يكون الشيء موجوداً يعني أصله موجود، والفائدة موجودة كذلك -فنحن تحدثنا في الوجه الأول أنه نفي للأصل أو الوجود، والوجه الثاني هو نفي الفائدة المقصودة، وهنا في النوع الثالث هو أن يكون الأصل موجوداً، والفائدة موجودة كذلك-، ومع ذلك ينتفي الاسم عن مسماه. وهذا ما يسمى (نفي الكمال).

لأن الفائدة غير مكتملة، فالفائدة موجودة ولكنها غير مكتملة، وهذا يسمى نفي التجويد فهذا المبحث يعتبر مبحثا لغويا.

1 -الدليل على ذلك مثل حديث إبليس لما جرى عرشه على الماء، وقال: "ما صَنعت شيئا" مع إن كل واحد من أبنائه صنع شيئا، ووجدت الحقيقة المقصودة من الإفساد، فمنهم من لم يترك الرجل إلى أن يسرق، ويزني، أو يقتل = أهذا لا يسمى شيئاً؟ بل يسمى، ولكن عندما لم يكتمل الإفساد إلا على يد -من فعل من الشياطين الذين يعملون مع إبليس وتحته، فعندما لم يكتمل الإفساد إلى على يد- من فرق بين المرء وزوجه وصفه بأنه مكتمل، فكل هذا إفساد ومع ذلك إبليس نفى أنه صنع شيئا، لأن عنده الشيء الحقيقي المكتمل أنه يفرق بين المرء وزوجه.

ومن ضمن هذا أيضاً -أن النفي نفي الكمال-:

2 -قولهم: الإنسان يتألم ألما يسيرا، ليس هذا بألم لأن الحقيقة المقصودة وهو الألم الأكبر لم يكتمل. فلو كان ألماً يسيراً فهذا ليس بألم أصلاً، ولكن لعدم وجود الألم الأكبر نفي الكمال.

3 – ومن هذا الباب ستدخل الأحاديث التي هي أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في نفي الإيمان، وهذا من مضمون الباب الذي نتحدث عنه.

أ -كقوله صلى الله عليه وسلم:" لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" فالفائدة موجودة وأصل الإيمان موجود، ولكن الفائدة لم تكتمل وهي لم يُقِم في قلوبهم الأحوال الإيمانية الواجبة. وأولها المحبة الواجبة أي فرع الكمال الواجب في القلب غير موجود، إذاً: الفائدة لم تكتمل وهي: أنه لم تقم في قلوبهم الأحوال الإيمانية الواجبة،

فأصل الإيمان موجود الذي هو أصل التصديق وأصل المحبة، ولكن لم يكتمل، أي لم تكتمل عنده الأحوال الإيمانية الواجبة، ولهذا قال: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فنفي الإيمان هنا هو نفي لكمال الإيمان، وليس نفي لوجود الإيمان أو نفي لأصل الإيمان، لا، بل هو نفي لكمال الإيمان الواجب.

ب –وكحديث النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه" أيضاً كما بيّنا، هذا نفي لكمال الإيمان.

وهذه المسألة كما يقول ابن تيمية: "إن الإيمان له مبدأ وكمال، فتارة ينفى باعتبار انتفاء كماله ويثبت تارة باعتبار وجود مبدأه" فعنده أصل الإيمان ولكنه في نفس الوقت منفي عنه كمال الإيمان.

والنص الذي قبله -يعني النوع الذي قبله- يمكن أن تحمل عليه نفي الأحاديث عن أصحاب الكبائر أيضاً، لأن الفائدة من الإيمان غير موجودة أصلا أي النوع الثاني -الذي تحدثنا عنه في النفي- أي إنه يجتنب الكبائر أما النوع الثالث الفائدة موجودة ولكن لم يكتمل.

إذاً النوع الثاني يمكن أن ننزله ونسقطه على نفي الإيمان عن أصحاب الكبائر، الذي هو نفي الفائدة المقصودة.

النوع الرابع: المسمى غير المقصود بل المقصود غيره لأن غيره أحق من الاسم:

ما معنى ذلك؟ بالمثال يتضح المقال:

1 – كما في قوله تعالى:" قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ " فهنا قال تعالى "لستم على شيء" مع ان لابد يكونوا على شيء، لأن كلمة شيء تشتمل على كل موجود، ولكن لـمّا كان على شيء باطل، نفى عنهم اسم الشيء، لأن هذا الشيء الباطل ليس هو المقصود بالاسم، بل المقصود غيره وهو الشيء الحق فهو أحق بالاسم.

2 – وكقوله صلى الله عليه وسلم:" على الكهان "ليسوا بشيء" مع أن الكهانة تسمى شيئا موجوداً، ولكن مع عدم نفيها صار محكوماً عليه بمنزلة العدم فانتفى عنها الاسم مع أنه ثابت لها لغة، ولكن المقصود غيرها كما بينت، والمعنى هم ليسوا على شيء صحيح، أو ليسوا على شيء حق، ولذلك يقول علماء الجرح والتعديل على بعض الرواة "ليس بشيء" لعدم الانتفاع به في الرواية، لظهور كذبه عمداً أو خطأ، فقوله لمن لم يعمل ما ينفعه "لم يعمل شيئا" مع إنه عمل والأدلة على ذلك كثيرة أيضاً.

النوع الخامس: يأتي النفي (أي نفي الاسم عن المسمى) وإثباته لغيره لا لأن المسمى لا يصح تسميته بهذا الاسم لكن لأن غيره أولى وأحق بالاسم منه

ففي الذي قبله قلنا إنه ليس على شيء صحيح، أو ليسوا على شيء حق، لذلك من كان عل الحق هو أولى به، أولى بالتسمية منه، لكن هذا -يعني النوع الخامس نفي الاسم عنه وتسميته بغيره- ليس له علاقة بأنه يصح أو لا يصح، إنما لأن غيره أولى وأحق بالاسم منه فقط، وهناك فرق دقيق بين هذا والذي يليها وستبينه الأمثلة.

1 -كما في قوله صلى الله عليه وسلم:" ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان، وإنما المسكين الذي يتعفف" متفق عليه. وفي رواية في الصحيحين: ليس المسكين الذي يطوف على الناس، ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غِنًى يغنيه، ولا يُفطن به فيُتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس"

فهذا ليس نفي اسم المسكين عن الطواف، لأن اسم المسكين للطواف يدخل فيه، أما الإخبار بهذا الاسم الذي يسمونه مسكينا أحق بهذا الاسم عن الطواف الذي يسمونه مسكينا"

يعني هل الطواف يسمى مسكين؟ نعم يسمى مسكين، ولكن الأحق منه أن يسمى مسكيناً هو الذي يتعفف، فليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، وإنما المسكين -الأولى باسم المسكين- وهو الذي يتعفف ولا يسأل الناس.

وابن عبد البر قال تعليقا على هذا الحديث:" أنه أراد -أي المسكين حقاً على الكمال- وهو أنه الذي بالغته المسكنة على أصل الطواف، يعني كأن المسكين اسم له أصل وكمال، الأصل هو الطواف، والكمال هو الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن به فيتصدق عليه ولا يقوم فيسأل الناس

2 – ومنه مثل قول سيدنا عمر ليس المسكين الذي لا مال له، لكن المسكين الأحق بالكسب"

كما شيخ العربية الشيخ محمود شاكر قال في قول عمر:" أراد عمر أن الفقير هو الذي لم يقدم لآخرته شيئا يثاب عليه، وإنما الفقر الأكبر هو فقر الآخرة، وأن فقر الدنيا أهون الفقرين.

3 – وأيضاً في هذا النفي كقول النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد من يملك نفسه عند الغضب" مع أنه في اللغة يسمى شديداً، فليس نفي اسم الصرعة عنه، ولكن إخبار بأن من يملك نفسه عند الغضب أحق بهذا الاسم منه.

4 – وكقول النبي صلى الله عليه وسلم:" ما تعُدُّونَ الرَّقوبَ فيكم؟) قال: قُلْنا: الَّذي لا يولَدُ له قال: (ليس ذلك بالرَّقوبِ ولكِنِ الَّذي لا يُقدِّمُ مِن ولدِه شيئًا) قال: (فما تعُدُّونَ الصُّرَعةَ فيكم؟) قُلْنا: الَّذي لا يصرَعُه الرِّجالُ قال: (ليس ذاك ولكنِ الَّذي يملِكُ نفسَه عندَ الغضبِ) " فهذا الحديث من هذا النوع من النفي كما تقدم.

5 –وكقوله تعالى:" قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ " مع إنه من أهله لأنه ابنه من صلبه، ولكن ليس هو المراد بالاسم وإنما المراد غيره وهو أهل دينه فهو أحق بالاسم لأن أهل كل نبي أمته مثل ما قال الزجاج، فإذاً الأحق به هو أهل دينه من ابنه الذي من صلبه.

6 -وكما في قوله تعالى:"وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ"

نفى عنهم سكر الشراب لأنه ليس هو المقصود بالاسم، وأثبت لهم سكر الفزع والخوف، لأنه هو المقصود بالاسم، مع إن سكر الشراب يسمى اسماً في اللغة، ولكن المقصود والأولى هو سكر الفزع والخوف.

وكما في قول ابن مسعود:" إنما العلم الخشية" وقولهم:" إنما العالم لمَن يخشى الله" = وهذا من أساليب العرب في النفي أنهم ينفون الشيء في صيغ الحصر، ويحصرون الشيء في غيره، كالقول الذي سبق "إنما العلم الخشية" و "إنما العالم لَمن يخشى الله" فهذا من أساليب العرب في النفي؛ أنهم ينفون الشيء في صيغ الحصر، تأتي صيغ الحصر للنفي، ويحصرون الشيء في غيره، يعني:

1 - إما انحصار جميع الجنس منه.

2 - أو لانحصار المفيد أو الكامل كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية.

فقول سيدنا عبد الله ابن مسعود: "إنما العلم الخشية" حصر العلم في غيره وهو الخشية لانحصار المفيد منه، أي أن العلم المفيد محصور في الخشية وما دونه من الرواية والدراية والحفظ فليس بعلم طالما ليس يؤدي إلى الخشية مع أنه يسمى علما من جهة اللغة.

7 – ومن هذا قوله تعالى:" إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ" أيضاً حصر الشيء في غيره لأنه الكامل منه فقد حصر الإيمان في هذه الأمور المذكورة في الآية، "إنما المؤمنون الذي إذا ذكر الله ..كذا ..كذا ...كذا، فحصر الشيء لأنه الشيء المفيد منه.

8 – ومنه قول مالك ابن دينار: "يقولون مالك زاهد وإنما الزاهد عمر بن عبد العزيز، أتته الدنيا فتركها" أي إنما الزاهد الكامل أحق باللفظ فالزهد ينحصر في عمر بن عبد العزيز في هذا المعنى.

هذه أنواع النفي.

ملحوظة: إن الأصل هو نفي الأصل، أو نفي الوجود، أو نفي الذات، إلا إذا أتت بالقرينة فبينت أن المقصود هو نفي الفائدة المقصودة وما إلى ذلك من باقي أنواع النفي.

هذا بالنسبة للنقطة الثانية.

إذاً: بينا في النقطة الأولى الإيمان المثبت في الكتاب والسنة، وفي النقطة الثانية في النفي وأنواع النفي، الموجود في لغة العرب وأيضاً في الكتاب والسنة.

النقطة الثالثة: لا إله إلا الله من أي شعبة من شعب الإيمان؟

وحتى نعرف لا إله إلا الله من أي شعبة من شعب الإيمان لابد من الحديث عن أمرين:

الأمر الأول: حقائق متعلقة بالإيمان. -وهذا مهم جداً جداً كمدخل ومقدمة لهذا الباب.

الأمر الثاني: بيان درجات الإيمان.

ومن ثم سنتحدث عن لا إله إلا الله كونها هي الدرجة الأولى من درجات الإيمان وهي أصل الإيمان.

الأمر الأول: حقائق متعلقة بالإيمان.

الحقيقية الأولى: الإيمان عند أهل السنة قول وعمل.

وهو يشمل الطاعات كلها، فرضها ونفلها، واجبها ومستحبها، وأدلة هذا كثيرة جدا، منها حديث "الإيمان بضع وسبعون شعبة: أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق"

قال الإمام ابن عبد البر:" أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل ... قالوا وكل ما يطاع الله عز وجل به من فريضة ونافلة فهو من الإيمان"، إذاً دخل فيها الفرائض والواجبات والنوافل والمستحبات.

وقال ابن تيمية حاكيا مذهب السلف:" قالوا: كل ما يطاع الله عز وجل من فريضة أو نافلة فهو من الإيمان".

وقال الإمام أبو يعلى:" وأما حده في الشرع فهو: جميع الطاعات الباطنة والظاهرة، فالباطنة أعمال القلوب وهو تصديق القلب، والظاهر هي أفعال البدن الواجبات والمندوبات".
ولاحظوا قوله في الباطنة هو أعمال القلوب وهو تصديق القلب، لأن عنده تصديق القلب لا ينفك عن لوازمه من أعمال القلوب، فهو التصديق الإذعاني كما سيأتي بيانه وليس هو التصديق العلمي الخبري المجرد عن أعمال القلوب، فهناك نوعان من التصديق، التصديق العلمي الخبري المجرد عن أعمال القلوب كما سنبينه بالتفصيل بإذن الله، والتصديق الإذعاني، الذي هو التصديق المستلزم لأعمال القلوب، وهذا التصديق هو عند السلف، عندما يطلقون السلف على تصديق القلب لا يقصدون به التصديق الخبري المجرد عن أعمال القلوب، لا، بل يقصدون به التصديق الإذعاني المستلزم لأعمال القلوب من محبة وتعظيم وخشية وانقياد لله وخضوع واستسلام ونحو ذلك، وسأبين ذلك بتفصيل، وسأنقل ذلك عن السلف، أن التصديق أولاً له مترادفات في اللفظ من جهة الألفاظ، يعني: التصديق، الاعتقاد، المعرفة، العلم، اليقين، الجزم، كل هذه الألفاظ بمعنى واحد، فهي مترادفة عند السلف، يطلقونها ويريدونها ويريدون لوازمها من أعمال القلوب، فيقصدون بها علم القلب وعمل القلب، علم القلب وما يستلزمه من أعمال القلوب من الانقياد والاستسلام والالتزام بأوامر الله سبحانه وتعالى ومحبة القلب والتعظيم، وسيأتي الحديث عن ذلك بالتفصيل إن شاء الله، وسأتحدث عن التصديق ونأتي بكلام لأهل العلم، وعن الاعتقاد ونأتي بكلام لأهل العلم، وعن المعرفة ونأتي بكلام لأهل العلم ونحو ذلك حتى تتضح مثل هذه المسائل، لأنها مهمة، يعني كلام الإمام أبو يعلى عندما يقول: "الإيمان حده في الشرع هو: جميع الطاعات الباطنة والظاهرة، فالباطنة أعمال القلوب وهو تصديق القلب" انظر كيف ان أعمال القلوب هي تصديق القلب! كيف؟ فالتصديق هو علم القلب! فيأتي شخص معاصر -وهذا حاصل وسآتي بأمثل على ذلك مثل: في كتاب الإيمان للدكتور محمد آل خضير، فهناك أخطاء، أخطاء في فهم مثل هذه الألفاظ عند السلف، فيأتي ويقول تصديق القلب عند أبو يعلى لا يكون بأعمال القلوب، أو تصديق القلب عند الإمام الآجري لا يكون بأعمال القلوب، لماذا؟ لأن التصديق علم القلب وليس عمل القلب، فهذا طبعاً من الأخطاء، لماذا؟ لأن تصديق القلب عند السلف هو تصديق القلب وما يستلزمه من أعمال القلوب كمحبة وخشية وتعظيم ونحو ذلك، أو انقياد والتزام وإسلام وخضوع لله سبحانه وتعالى، وهكذا من أعمال القلوب، وسيأتي البيان بتفصيل بإذن الله لأنها من المسائل المهمة، وأيضاً لنفهم بها كلام أهل العلم عندما نقرأ في الكتب المسندة، ونحو ذلك لنفهم كلام اهل العلم على حقيقته، ولذلك فليس الإيمان هو شيئا واحدا -نحن الآن نتحدث عن الإيمان قول وعمل، الحقيقة الأولى المتعلقة بالإيمان، الإيمان عند اهل السنة، وبينا كلام ابن عبد البر وابن تيمية وأبو يعلى ونحو ذلك، فليس الإيمان هو شيئاً واحداً - ولا حقيقية واحدة كما عند الخوارج والمرجئة، بل هو مركب من شعب وأجزاء، كما قال الإمام ابن حزم:" الإيمان اسم مشترك يقع على معان شتى" ثم ذكر هذه المعاني.
والإيمان بهذا الإطلاق يرادف تماما -الإيمان وليس التصديق فالتصديق له مترادفات، كالاعتقاد والعلم والمعرفة واليقين والجزم ونحو ذلك كل هذا مترادفات في التصديق، والإيمان له أيضاً مترادفات، الإيمان عند الإطلاق عندما يدخل فيه جميع الطاعات سواء النوافل أو الواجبات ونحو ذلك يرادف تماماً ألفاظاً- والإيمان بهذا الإطلاق يرادف تماماً ألفاظ: العبادة، والطاعة، والدين والتوحيد والتقوى والبر عند الإطلاق، كل ذلك تعني بمعنى الإيمان، يدخل فيه جميع الطاعات، النوافل والواجبات، ولذلك استدل الامام البخاري في "باب أمور الإيمان" من "كتاب الإيمان" بقوله تعالى:" لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ..." الآية. وقد فسرها الإمام ابن كثير أيضا بالإيمان، وقال ابن حبان عبادة الله: إقرار باللسان وتصديق بالقلب وعمل بالجوارح". إذاً يقصد به الإيمان، الإيمان المكون من قول وعمل ويدخل فيه جميع الطاعات الواجبة والمستحبة، وإن لاحظتم أن ابن حبان يقول "إقرار باللسان وتصديق بالقلب" وأيضاً المقصود بتصديق القلب المقصود منها تصديق القلب وعمل القلب، وهو تعريف الإيمان، يعني عبادة الله، والإقرار باللسان والتصديق بالقلب والعمل بالجوارح هذا هو تعريف الإيمان -كما نعلم-، لذلك قد يأتي مرادفات للإيمان مثل: العبادة (عبادة الله)، والطاعة (يعني الواجبات والمستحبات) والدين، والتوحيد، والتقوى (يعني فعل الواجبات والمستحبات)، والبر ونحو ذلك، كل هذا إطلاقات عند أهل العلم، فعندما تجد مثل هذه الألفاظ عند أهل العلم فاعلم أن المقصود بها الإيمان بالمعنى الكامل، الذي يدخل فيه جميع الطاعات من نفل وواجب ومستحب ونحو ذلك.
قال ابن القيم:" وبنى "إياك نعبد" على أربع قواعد: التحقيق بما يحبه الله ورسوله، من قول اللسان والقلب وعمل الجوارح، فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع، فأصحاب إياك نعبد حقا هم أصحابها". ثم شرع في الكلام على قول القلب وقول اللسان وعمل القلب وعمل الجوارح بما قاله عن الإيمان تماما في كتابة "الصلاة".
إذاً: المقصود بالعبادة "العبودية" وهي اسم جامع لهذه المراتب، وأطلق ابن القيم على العبودية نفس تعريف الإيمان.
ما علاقة هذه الحقيقة بما نتحدث عنه؟
وعلاقة هذه الحقيقية (أي الإيمان عند أهل السنة قول وعمل) بلا إله إلا الله، أن كلمة لا إله إلا الله متضمنه لأصل قول القلب وعمله، فهي قول باللسان ومتضمنة لأصل قول القلب وأصل عمل القلب، فهي قول وعمل أيضا ولكن قول

باللسان وقول بالقلب وعمل بالقلب وهي أصل الإيمان وهي الدرجة الأولى من درجات الإيمان كما سيأتي بإذن الله تعالى.

الحقيقية الثانية: الإيمان عبارة عن أصل وفرع.

والأصل: هو ما ترتب على وجوده وجود الفرع وصحته، والفرع هو ما ترتب على وجوده كمال الأصل وصيانته ومتانته، والفرع محتاج للأصل في وجوده وصحته، وللبيان سنأتي بأمثلة على ذلك، ولكن يقول ابن تيمية في هذا المعنى: (فالدين أول ما يبنى من أصوله ويكمل بفروعه، كما أنزل الله بمكة من التوحيد والأمثال التي هي المقاييس العقلية والقصص والوعد والوعيد، ثم أنزل بالمدينة -لما صار له قوة-فروعه الظاهرة من الجمعة والجماعة والأذان والإقامة والجهاد والصيام وتحريم الخمر والزنا والميسر وغير ذلك واجباته ومحرماته. فأصوله تمد فروعه وتثبتها وفروعه تكمل أصوله وتحفظها).

ويقول ابن تيمية أيضا:" أما من كان معه أول الإيمان فهذا يصح منه، لأن معه إقراره في الباطن بوجوب ما أوجبه الرسول وتحريم ما حرمه، وهذا سبب الصحة، وأما كماله فيتعلق به خطاب الوعد بالجنة والنصرة والسلامة من النار".

فأول الإيمان هو أصل الإقرار الباطن، وهو أصل تصديق القلب وعلمه وعمله من انقياد واستسلام لأوامر الله تعالى وهذا سبب الصحة أي صحة الإيمان، وهذا يوجب إقراره باللسان من القول بالشهادتين، فمن كان عنده علم القلب المستلزم لعمل القلب الذي هو أصل قول القلب أو أصل التصديق أو أصل الانقياد لله سبحانه وتعالى والاستسلام لله سبحانه وتعالى وأصل المحبة فهذا يوجب ويورث مباشرةً الإقرار باللسان، من القول بالشهادتين.

فهذا الكلام عن مسألة الإيمان أصل وفرع، فتحدثنا على الصحة "الأصل" أصل قول القلب وأصل أعمال القلوب، مع الإقرار بالشهادتين.

والفرع نوعان: فرع واجب، وفرع مستحب.

فإن الإيمان على كثرة شعبة عبارة عن ثلاثة أمور: 1 – أصل. 2 – فروع واجبة. 3 – فروع مستحبة.

فهو إذن ثلاث درجات هذه الدرجات الثلاث هي المذكورة في قوله تعالى:" ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله" وقد بينا هذه الآية من قبل، وهي أيضا المذكورة في حديث جبريل عن الإسلام والايمان والإحسان.

وعلاقة هذه الحقيقة (أي كون الإيمان عبارة عن أصل وفرع واجب وفرع مستحب) كون الإيمان له أصل وفرع واجب وفرع مستحب ما هي علاقتها بكلمة لا إله إلا الله؟

سيأتي إن أصل الإيمان هي كلمة لا إله إلا الله مع أصل قول القلب وأصل أعمال القلوب، لأن شروط لا إله إلا الله عند المتقدمين هي أصل قول القلب وأصل أعمال القلوب، فالإقرار باللسان الذي هو لا إله إلا الله محمدا رسول الله متضمن لأصل علم القلب وأصل أعمال القلوب، وأصل علم القلب والتصديق وأصل أعمال القلوب مستلزمه وموجِبه للإقرار باللسان والقول بالشهادتين. وفي هذا يقول ابن تيمية عن الإيمان: "وهو مركب- أي الإيمان- من أصل لا يتم بدونه، ومن واجب ينقص بفواته نقصاً يستحق صاحبه العقوبة، ومن مستحب يفوت بفواته علو الدرجة، فالناس فيه ظالم لنفسه ومقتصد وسابق، كالحج وكالبدن والمسجد وغيرهما من الأعيان والأعمال والصفات، فمن أجزائه ما إذا ذهب نقص عن الأكمل -يقصد المستحبات إن لم نفعلها نقص عن الأكمل، نقص في علو الدرجات فقط، فالمستحب لا ينفى به الإيمان كما سنبين بتفصيل إن شاء الله- ،ومنه ما نقص عن الكمال، وهو ترك الواجبات أو فعل المحرمات، ومنه ما نقص ركنه وهو ترك الاعتقاد والقول، الذي يزعم المرجئة والجهمية أنه مسمى فقط، وبهذا تزول شبهات الفرق، وأصله القلب وكماله العمل الظاهر، بخلاف الإسلام فإن أصله الظاهر، وكماله القلب". انتهى كلام ابن تيمية، وهنا يقصد بالإيمان المركب أي مركب من:

1 -أصل لا يتم بدونه: أي من أجزائه أو أركانه اللازمة، وهي إجمالا: القول والاعتقاد (كما نص على ذلك ابن تيمية)، وكما سنبين إن المقصود بالاعتقاد عن السلف قول القلب وعمله معاً، كما بينا أن التصديق والاعتقاد والمعرفة واليقين كل ذلك مترادفة للتصديق، وعند السلف المقصود بالتصديق أو الاعتقاد أو المعرفة أو اليقين وكل ذلك: اليقين أو الاعتقاد المستلزم لعمل القلب.

إذاً عندما يقول ابن تيمية: "ومنه ما نقص ركنه وهو ترك الاعتقاد والقول" فإنه يقصد بالقول هنا علم القلب وعمل القلب، وسنبين ذلك بنصوص عن الأئمة، فترك الاعتقاد هو ترك علم القلب وعمل القلب، والقول قول باللسان "أشهد ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله" فمن نقص ركنه وهو ترك الاعتقاد والقلب هذا كافر.

إذاً: أصل لا يتم بدونه، أي من أجزاءه وأركانه اللازمة، إجمال القول والاعتقاد، وبينا معنى القول والاعتقاد هنا، وسيأتي التفصيل عن ذلك بإذن الله.

وتفصيلا -أي تفصيل ما لا يتم إلا به-: قول القلب واللسان وعمل القلب، وهو الإيمان المنجي، وهو إيمان الظالم لنفسه كما بينه ابن تيمية بنفس النص.
فمراد الشيخ بقوله: "ومن أصل لا يتم بدونه" أي تمام الأجزاء الثلاثة المجملة في الركنين: القول والاعتقاد، كما بينت -بمعنى الاعتقاد علم القلب وعمل القلب-، فإذا كملت وانضم بعضها إلى بعض، وجب وجود أصل الإيمان المنجي، وهذا هو التركيب الأول.
أما التركيب الثاني للإيمان، هو الإيمان المنجي (أصل الإيمان) +فعل الواجب وترك المحرم = الإيمان الواجب.
التركيب الثالث للإيمان: أصل الإيمان+ الإيمان الواجب+ فعل المستحبات= الإيمان المستحب.
2 -ومن واجب: أي أصل الإيمان مع الأعمال الواجبة، وهو إيمان المقتصد
3 –ومن مستحب: أي الإيمان المستحب، وهو: أصل الإيمان مع فعل الواجبات والمستحبات، وهو إيمان السابق بالخيرات.
فهنا قسم شيخ الإسلام الإيمان إلى ثلاثة أقسام، الإيمان المنجي وهو أصله، ثم الإيمان الواجب، ثم الإيمان المستحب.
خلاصة المسألة ما هي أنواع الإيمان كما بينه ابن تيمية؟
أنواع الإيمان التام:
1 -الإيمان التام المتعلق بأصل الإيمان المنجي:
هو التركيب الأول السابق فلا يتم أصل الإيمان إلا بقول القلب وعمله مع إقرار اللسان والشهادتين.
أي= أصل الإيمان المنجي، الذي من جاء به يوم القيامة استحق العقاب ابتداء والخروج من جهنم مآلا. وهو التصديق والإقرار المتضمن لقول القلب واللسان مع عمل القلب، وهو مراد شيخ الإسلام بقوله: "فأصل الإيمان الإقرار والتصديق"، والإقرار والتصديق بمعنى واحد الذي هو مستلزم لعمل القلب، الاعتقاد المستلزم لعمل القلب، واليقين المستلزم لعمل القلب، كل هذه معاني مترادفة.
2 - الإيمان التام المتعلق بكمال وفرع الإيمان الواجب:
لا يتم وجوده إلا بأصل الإيمان المنجي السابق، مع كمال الإيمان الواجب وهو التركيب الثاني السابق. والمقصود بكمال الإيمان الواجب هنا: ظاهرا وباطنا، يعني: كمال وفرع الإيمان القلبي الواجب وما يلزم عنه من الإتيان بكل الطاعات وترك كل المحرمات، فمن فعل كل الطاعات وترك كل المحرمات والمعاصي أتم إيمانه الواجب، والمقصود بالكمال الواجب الذي هو في مقابل الأصل والمستحب كما بينت، أصل وكمال وفرع واجب وكمال أو فرع مستحب. فتمامه بالإتيان بالأعمال الواجبة من الأعمال الظاهرة.
3 – الإيمان التام المتعلق بكمال وفرع الإيمان المستحب:
لا يتم إلا بأصل الإيمان المنجي الذي هو أصل الإيمان، مع كمال الإيمان الواجب -بالمعنى السابق، يعني أتى بكل الواجبات وترك كل المحرمات- مع فعل المستحبات وترك المكروهات وهو التركيب الثالث السابق. وفي هذا -يعني المستحبات- قال ابن تيمية: "والشارع لا ينفي الإيمان عن العبد لترك مستحب ولكن لترك واجب بحيث ترك ما يجب من تمامه وكماله لا بانتفاء ما يستحب من ذلك، ولفظ الكمال والتمام قد يراد به التمام الواجب والكمال المستحب".
فالكمال والتمام بمعنى واحد اما تمام وكمال الواجب أو تمام وكمال المستحب، هذا هو الأصل في كلمتي الكمال والتمام، ويمكن الإتيان بكلمة التمام أي بصياغتها بكلمة (لا يتم) في أصل الإيمان، ويمكن بيان ذلك من خلال شرح كيفية تحقق الشيء، وأفصل في ذلك لأهميته:
معلوم أن الأشياء لن تتحقق وتكتمل إلا باكتمال مكوناتها، ولوازمها، فمن كان له لوازم، ومتضمنات، ومتممات (وكلها هنا بمعنى واحد)، فلن يتحقق ويصبح تاما كاملا إلا بلوازمه ومتمماته.
وهذا ينطبق على الايمان، سواء كان أصل الايمان، أو الإيمان المطلق (الواجب)، أو الإيمان الكامل بالمستحبات، فكل منهم له ما يتممه وبه يتحقق ويكتمل فيصبح كاملا تاما.
أولا: أصل الإيمان:
والمقصود الإجمالي منها قول لا إله إلا الله وما تتضمنه من أصل تصديق القلب وعلمه وأصل عمل القلب.
فللأصل ما يتممه ويكمله حتى يكون محققا لهذا الأصل، ومن ثم ينتفع به، وانتفاعه به هو الخروج من ملة الكفر، والدخول في الاسلام، فهذا أعظم ثواب، وهو النجاة من الخلود في النار. وهو الإيمان المنجي من النار ابتداء.
ولوازم أصل الإيمان ومتمماته التي لا تنفك عنه بل هي ركن فيه حتى يتم وينتفع به:
أصل الأصول في أصل الايمان، هو التصديق، والمقصود بالتصديق المنافي للشك، وهذا التصديق عند السلف كما بينا هو المستلزم لأعمال القلوب، كما سأنقل عن الأئمة وسأبين بتفصيل.
إذا أصل الإيمان متكون من، 1 – أصل التصديق 2-وأصل أعمال القلوب ولكن لن يتحقق أصل الإيمان ويكتمل ويتم الايمان القلبي التام -الذي هو أصل الإيمان في هذا المقام- إلا

3 -بالإقرار باللسان مع أصل التصديق وأصل أعمال القلوب، وبدون إقرار اللسان مع القدرة، فلن يتحقق أصل الايمان، ويكون كافرا باطنا وظاهرا. وهذا محل نزاعنا مع الجهمية من وجوه كما سيأتي في موضعه عندما نشرح كتاب الإيمان بإذن الله تعالى.
ونحن الآن بينا أصل الإيمان، وما هي متمماته وكيف يتحقق.
ولا يتم: عندما نقول لا يتم يعني لا يتحقق هذا ولا يتم ولا يكون كاملاً ولا منتفعاً به إلا بهذه المتممات له، ولوازمه التي لا تنفك عنه، من أصل التصديق وأصل أعمال القلوب والإقرار بالشهادتين.

ثانيا: كمال أو فرع الإيمان الواجب:

وهو الإيمان المطلق، ولن يتحقق الإيمان المطلق ويكمل، إلا بلوازمه ومتمماته، حتى ينتفع به، والانتفاع به هو الدخول إلى الجنة بلا عذاب ولا عقاب، مع اختلاف لوازم كل منهما، ومتمماتهم، وبدون متمماتهم، ولوازمهم، لن ينفع أحد هذه المكونات والمتممات دون الآخر، ولن يجزئ ولا يصح ولا يستقيم أحدهم دون باقي متمماته، ولوازمه، ومتضمناته.

ولوازم الإيمان المطلق ومتمماته:

"أو لا يتم أو لا صح أو لا يجزئ أو لا يستقيم هذا الإيمان المطلق إلا بهذه المتممات، وهكذا في أصل الإيمان، لا يصح، لا يتم، لا يجزئ، أصل الإيمان إلا بمتمماته، ومكوناته، فلوازم الإيمان المطلق ومتمماته حتى يصبح إيماننا تاما كاملا مطلقا لابد فيه من الأصل والفرع اللازم له، فأصله = هو أصل الإيمان السابق، أصل التصديق + وأصل أعمال القلوب، ونتيجة التلقائية للتعبير عن تحقق الإيمان القلبي من تصديق بالحق وانقياد له = وهو الاقرار باللسان، فهذا هو أصل الإيمان = وهو قول القلب وعمله والقول بالشهادتين (قول اللسان)، وهذا الأصل لا ينفع وحده في استحقاق الوعد بالجنة أي دخول الجنة بلا عذاب، وإنما يستحق الجنة بلا عذاب من يحقق الإيمان المطلق، الذي يستحق صاحبه هذا الثواب والوعد، وهو من فعل كل الواجبات وترك كل المحرمات، لذا لن يتحقق هذا بأصل الإيمان من تصديق قلبي وعمله وإقرار اللسان إلا بالأعمال الصالحة، وهذا هو محل النزاع في مبحث -مسمى الايمان- مع المرجئة والجهمية من وجه من جهة الإثبات، ومع الخوارج والمعتزلة من جهة النفي. كما سيأتي بتفصيل كبير بإذن الله تعالى في شرحنا لكتاب الإيمان المجلد السابع من مجموع الفتاوى.
وليس هدفنا بيان مذهب المرجئة ولا الجهمية وإنما بيان مذهب أهل السنة والجماعة إجمالا. وبهذا نكون أنهينا الحقيقة الثانية من الحقائق المتعلقة بالإيمان عند أهل السنة والجماعة وهي الإيمان عبارة عن أصل وفرع، وبينا أن الفرع نوعان، فرع واجب وفرع مستحب، كما أن الحقيقة الأولى هي الإيمان قول وعمل.

الحقيقية الثالثة: الإيمان له أول وآخر، مبتدأ وكمال.

الإيمان له أول وآخر، أو مبتدأ وكمال، والمقصود بأول الإيمان أو مبتدأه أو بدايته هو "أدناه" وهو ما اصطلح عليه بـ "أصل الإيمان"، وهو القول بالشهادتين وما يتضمنها من أصل قول القلب وأصل أعمال القلوب.
وأما آخره أو نهايته أو كماله أو أعلاه، فهي فروعه الواجبة والمستحبة.
واسم الإيمان وحكمه يشمل كل من دخل فيه–أو حتى أتى بأوله وهو من معه (أصل الإيمان) أو معه شيء منه وإن لم يستكمله، الذي أتى ببعض الواجبات، قال الإمام محمد بن نصر المروزي:" فأما اسم الإيمان وحكمه فإنه يلزم بالدخول في الإسلام وإن لم يستكمله، وكذلك جميع الأعمال إذا دخل الناس فيها استحقوا اسمها عند الله ابتدائها، والدخول فيها، ثم يتفاضلون في استكمالها بالازدياد في الأعمال".

وقال الإمام ابن منده:" للإيمان أول وآخر، فأوله الإقرار -وهو الإقرار الذي هو القول باللسان يعني الشهادتان وما تضمنه من أصل القول وأعمال القلوب-، وآخره إماطة الأذى عن الطريق".
والمقصود أوله الإقرار أي الإقرار باللسان وهو القول بالشهادتين وما يتضمنه من أصل قول القلب وعمله، كما في الحديث الإيمان بضع وسبعون شعبة أولها لا إله إلا الله وهذا هو أول الإيمان، وإماطة الأذى عن الطريق هذا هو آخره.
وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام رحمة الله:" فإنا وجدنا الأمور كلها يستحق الناس بها أسماءها مع ابتدائها والدخول فيها، ثم يفضل فيها بعضهم بعضا، وقد شملهم فيها اسم واحد".
ثم أعطى أمثلة رائعة لبيان هذا المقصود حيث قال: "من ذلك أنك تجد القدم صفوفا بين مستفتح للصلاة، وراكع وساجد وقائم وجالس، فكلهم يلزمهم اسم المصلي، فيقال لهم مصلون، وهم مع هذا فيها متفاضلون، وكذلك صناعات الناس، لو أن قوما ابتنوا حائطا، وكان بعضهم في تأسيس وآخر في نصفه وآخر قد قارب الفراغ منه، قيل لهم جميعا بُناة، وهم متباينون في بنائهم، وكذلك لو أن قوما أُمروا بدخول دار، فدخلها أحدهم، فلما تعتَّب الباب أقام مكانه، وجاوزه آخر بخطوات، ومضى الثالث إلى وسطها، قيل لهم جميعا داخلون، وبعضهم فيها أكثر مدخلا من بعض، فهذا الكلام المعقول عند العرب السائر فيهم، فكذلك المذهب في الإيمان... فوجدنا أعمال البر وصناعات الأيدي، ودخول المساكن كلها تشهد على اجتماع الاسم، وتفاضل الدرجات فيها ...فهكذا الإيمان درجات ومنازل، وإن كان سَمى أهله اسما واحدا".
وخلاصة كلام هذا الامام الضليع: أن اسم الإيمان، بل وسائر الأسماء التي لها مبتدأ وكمال يطلق الاسم على صاحبه بمجرد الدخول فيه وتحقق مبتدئه، كما يطلق على من حقق كماله سواء بسواء، وإن بينهما من التفاضل على قدر ما حققه كل منهما.
يقول ابن تيمية: "إن الإيمان له مبدأ وكمال، تارة ينفى باعتبار انتفاء كماله ويثبت تارة باعتبار وجود مبدأه"
إذاً هناك مبدأ وكمال في الإيمان.
وقال ابن تيمية في هذه الحقيقة أيضاً: "أما من كان معه أول الإيمان فهذا يصح منه، لأن معه إقراره في الباطن بوجوب ما أوجبه الرسول وتحريم ما حرمه، وهذا سبب الصحة، وأما كماله فيتعلق به خطاب الوعد بالجنة والنصرة والسلامة من النار".
وقال ابن تيمية أيضا:" وأما دخوله في الخطاب، فلأن المخاطب باسم الإيمان كل من معه شيء منه، لأنه أمر لهم، فمعاصيهم لا تسقط عنهم الأمر".
وقال الإمام الخطابي في حديث الإيمان بضع وسبعون شعبة:" وفي هذا الحديث بيان أن الإيمان الشرعي اسم لمعنى ذي شعب وأجزاء له أدنى وأعلى، والاسم يتعلق ببعضها كما يتعلق بكلها، والحقيقية تقتضي جميع شعبها وتستوفي جملة أجزائها"
فهنا أمران:
الأمر الأول: أن اسم الإيمان يتعلق ببعض شعب وأجزاء الإيمان كما يتعلق بكلها، وهذا هو كون الاسم يطلق على أدنى شيء أو مبدأ الإيمان كما يطلق على أعلاه.
الأمر الثاني: أن الإيمان له مبدأ أو أول أو حد أدنى لا يمكن أن ينقص عنه وإلا خرج من الإسلام والإيمان بالكلية، لأن هناك من أنكر وجود حد أدنى للإيمان نظرا لأن أحد المعاصرين قال ذلك وقلده تلاميذه ومحبيه في ذلك، ولكن هنا الإمام الخطابي ينص بيان أن الإيمان الشرعي اسم لمعنى ذي شعب وأجزاء له أدنى وأعلى، أي له حد أدنى، وهذا ما صرح به الإمام محمد ابن نصر المروزي في معرض رده على المرجئة حيث قال: (وذلك أن نقول: إن للإيمان أصل، من نقص منه مثقال ذرة زال عنه اسم الإيمان، ولكنه يزداد بعده إيماناً إلى إيمانه، فإن نقصت الزيادة التي بعد الأصل الذي هو إقرار بأن الله حق وما قاله صدق لأن النقص من ذلك شك في الله أحق هو أم لا؟ وفي قوله أصدق هو أم كذب؟ ... " إلى آخر كلامه رحمه الله.
والشاهد من كلامه وجود قدر هو أصل الإيمان مثقال ذرة إن نقصت زال عنه الإيمان وأصبح كافراً، والمقصود بالذرة هنا أصل تصديق القلب وما يستلزمه ويتبعه من أعمال القلوب يعني أصل التصديق وأصل أعمال القلوب وما يتبعه من إقرار باللسان "لا إله إلا الله محمد رسول الله" لأن من انتفى عنه الشك ودخل في التصديق الجازم فإن هذا التصديق الجازم من لوازمه محبة الله تعالى وما يتبعه من إقرار بشهادة لا إله إلا الله، وسيأتي الحديث عن التفصيل في التصديق الجازم أنه يبدأ بالبعد عن الشك والتكذيب وإلى التصديق الكامل، وسيأتي تفصيل ذلك بشكل ممتع بإذن الله تعالى.
الشاهد من كلام الإمام محمد بن نصر المروزي والإمام الخطابي أن هناك حد أدنى أو أصل الإيمان "مثقال ذرة" والنقص والزيادة عنه، وهذا نفس ما يقوله ابن تيمية أيضاً بأن هناك حد أدنى وقدر مشترك كما بين الإمام القاسم ابن سلام في مسألة أنه ثمة مبتدأ يبدأ به الإسلام، وكما قال ابن تيمية: "من كان معه أول الإيمان فهذا يصح منه، لأن معه إقراره في الباطن بوجوب ما أوجبه الرسول وتحريم ما حرمه، وهذا سبب الصحة" ويقصد بالإقرار هنا أصل قول القلب وأصل أعمال القلوب مع الإقرار باللسان.

إذاً نقلنا كلام الإمام المروزي وقلنا إن الإمام ابن تيمية قال مثل قوله في مسألة الاشتراك، وأنه ثمة قدر مشترك ينقص عنه وهو الحد الأدنى، حيث قال ابن تيمية: "فإذا كان نفس ما وجب من الإيمان في الشريعة الواحدة يختلف ويتفاضل، وإن كان بين جميع هذه الأنواع قدر مشترك موجود في الجميع، كالإقرار بالخالق وإخلاص الدين له، والإقرار برسله واليوم الآخر، على وجه الإجمال" انتهى كلام ابن تيمية.
فهذا عند من لم تفسد فطرتهم سواء لا يتفاوتون فيها وهي معنى الخلقة والفطرة ولوازمها من الإقرار باللسان والنطق بالشهادتين، يعني ابن تيمية يقول بوجود حقيقة مشتركة لا تقبل التفاوت، وهي الحد الأدنى، وإن نقصت أصبح صاحبها كافرا بالاتفاق، وهذه الحقيقة المشتركة أصل التصديق هو القدر الذي به يزول الشك، وأصل المحبة وهو القدر الذي يدفع صاحبة إلي الانقياد لله ورسوله، ويقف من الوحي موقف السمع والطاعة، فهو أقل وأدنى شيء بنقصه يزول الايمان، وينقلب التصديق لشك وتكذيب، وينقلب المحبة لبغض وهو كفر، أو لا يحب ولا يبغض وهو كفر أيضا = وهذا القدر من التصديق والمحبة يلزم منها القول بالشهادتين كما بين ابن تيمية في قصة أبي طالب عم النبي وعدم قوله بالشهادتين كما سيأتي، فهذا القدر من أصل التصديق والمحبة لا تقبل النقصان بحال فمن هذه الجهة هي متساوية مشتركة ولا يمكن أن تتفاوت إلا من جهة زيادة التصديق وزيادة المحبة فيكون هذا القدر الزائد عن أصل الإيمان هو الذي يتفاوت ويكون فيه القوة والضعف والزيادة والنقصان والتفاوت.
فالناس متفاوتون في الإيمان المفصل وليس الإيمان المجمل، سواء الإيمان بالله او بملائكته ورسله وكتبه واليوم الاخر والقدر = بحسب ما بلغهم من العلم، والإيمان المفصل = هو القدر الذي يكون تبعا للعلم التفصيلي الذي يبلغ المكلف من نصوص الكتاب والسنة
إذاً: الإمام المروزي وابن تيمية يتفقان والخطابي كذلك على القدر المشترك الذي هو إقرار بأن الله حق وما قاله صدق لأن النقص من ذلك شك في الله أحق هو أم لا؟ وفي قوله أصدق هو أم كذب؟ كما قال المروزي وكما نقلنا بنص ابن تيمية في القدر المشترك.
واعترض على المروزي أحد الأفاضل بذكر كلام ابن تيمية في الإيمان المفصل الذي هو محل الزيادة والنقصان، والمروزي يقول بالزيادة والنقصان أيضا في الإيمان المفصل، ولكن محل الاتفاق بينهما في وجود قدر مشترك وحد أنى هو نفي الشك والدخول في التصديق المستلزم لأعمال القلوب من محبة وتعظيم وخشية وما يوجب منه من القول بالشهادتين.
وبهذا يكون قد أنهينا الحديث عن الأمر الأول الذي هو حقيقة الإيمان بهذه الحقائق الثلاثة.

الأمر الثاني: بيان درجات الإيمان.

فتقسيمات شعب الإيمان:
1 – باعتبار طبيعة الشعب: قسمان: قول وعمل.
2 – باعتبار الآلة والمحل: ثلاثة أقسام: شعب قائمة بالقلب. شعب قائمة باللسان. شعب قائمة بالجوارح.
3 – باعتبار الظاهر والباطن: قسمان: ظاهرة. باطنة.
4 – باعتبار علاقة الشعب بعضها ببعض: قسمان: أصل. فرع.
والذي يهمنا الآن هو الإيمان عبارة عن أصل وفرع واجب وفرع مستحب. وبهذا الاعتبار الذي هو علاقة الشعب بعضها ببعض: قسمان: أصل. فرع، فهو أصل وفرع واجب وفرع مستحب، وعليه، سنقسم درجات الإيمان إلى ثلاث درجات.
الدرجة الأولى هي أصل الإيمان
الدرجة الثانية هي الفرع الواجب للإيمان أو الكمال الواجب للإيمان
الدرجة الثالثة هي الفرع المستحب للإيمان أو الكمال المستحب للإيمان

الدرجة الأولى هي التي فيها شروط لا إله إلا الله عند السلف، وسنفصل القول بهذه الدرجة الأولى إن شاء الله.
الدرجة الأولى:
وهي أصل الإيمان المجمل، وهي عبارة عن ثلاثة أشياء:
1 – تصديق خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم جملة وعلى الغيب (أصل قول القلب أو أصل علم القلب أو أصل تصديق القلب).
2 – الالتزام بأمره صلى الله عليه وسلم جملة وعلى الغيب (عمل القلب او انقياد القلب الذي هو أصل أعمال القلوب).
3 – الإعلان عن ذلك باللسان (إقرار اللسان، الذي هو قول لا إله إلا الله).
ومن هذا نفهم شروط لا إله إلا الله عند السلف ومتقدمي العلماء، وهو شرطان: أصل التصديق أو أصل قول القلب، وأصل أعمال القلوب. فلا إله إلا الله وشرطيها هو أصل الإيمان أو الإيمان المجمل أو الإقرار المجمل.

فعندما يتحدث ابن تيمية عن الإيمان المجمل أو الإقرار المجمل أو أصل الإيمان ونحو ذلك فهو يقصد بها لا إله إلا الله وشرطيها (أصل تصديق القلب أو أصل الإقرار بالقلب أو أصل الاعتقاد بالقلب أو نحو ذلك من مترادفاتها، وأصل أعمال القلوب).

ويمكن بيان هذه الدرجة ببيان أمرين:
الأمر الأول: أصل الإيمان المجمل. وهو شروط لا إله إلا الله بإجمال.
الأمر الثاني: تفصيل شروط لا إله إلا الله عند المتقدمين، ومن ثم سنتحدث أيضاً عند المعاصرين يعني من الشيخ عبد الرحمن بن حسن لأنه يعتبر أول من ذكر شروط لا إله إلا الله السبعة أو الثمانية بالمفهوم المعاصر، أما الآن فنحن سنتحدث عن كلام المتقدمين من السلف.
1.42.34

الأمر الأول: أصل الإيمان المجمل.

فأصل الإيمان هو الإقرار المجمل بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم تصديقا وانقيادا أو علماً وعملاً. والمقصود بالإقرار المجمل بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم تصديقا وانقيادا، أي: استعداد المرء لتصديق كل خبر يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم تفصيلا، والانقياد لكل أمر يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم تفصيلا دون أن يكون المرء عَلِمَ بذلك التفصيل بعد، فهو إقرار مجمل كما بينا، فإذا ما تحقق هذا الأمر أعلن صاحبه عن ذلك بلسانه وذلك بالتلفظ بالشهادتين مدللاً بذلك على أنه التزم التوحيد وتبرأ من الشرك اختياراً وقصداً، وهذا هو معنى قول الإمام الزهري "الإسلام الكلمة والإيمان العمل": أي كلمة التوحيد الصادرة عن التصديق القلبي-وهو كما بينا أصل التصديق القلبي وأصل أعمال القلوب-، فاسم الإسلام يثبت بالتوحيد والخروج من ملل الكفر".
قال ابن تيمية:" فأصل الإيمان في القلب، وهو قول القلب وعمله، وهو إقرار بالتصديق والحب والانقياد". وقال ابن تيمية أيضا:" فالمؤمن الذي آمن بقلبه وجوارحه، إيمانه يجمع بين علم قلبه وحال قلبه: تصديق القلب وخضوع القلب، ويجمع قول لسانه وعمل جوارحه، وإن كان أصل الإيمان هو ما في القلب أو ما في القلب واللسان". يقصد بهذا قول لا إله إلا الله وما تضمنته من أصل التصديق وأصل أعمال القلوب، وقول ابن تيمية عندما يقول أن "أصل الإيمان في القلب وهو قول القلب وعمله وهو إقرار بالتصديق والحب والانقياد" فإنه لا يقصد أن "لا إله إلا الله" ليست في أصل الإيمان، بل إن قول القلب وعمله، أو الإقرار والتصديق والحب والانقياد من لوازمه التي لا تنفك عنه قول "لا إله إلا الله محمد رسول الله" لغةً وشرعاً، وسيأتي الإقرار باللسان بتفصيل وسيأتي كلام أهل العلم عنه، لأنه يوجد من أخطأ أيضاً في مثل هذه المسائل، مثل الدكتور محمد آل خضير في الإيمان عند السلف أتى عند كلام ابن تيمية "إن أصل الإيمان هو ما في القلب واللسان" فقال تردد ابن تيمية، هل كذا أم كذا، وابن تيمية لم يتردد، فابن تيمية في مواضع ينقل فيها أن أصل التصديق وأصل أعمال القلوب ونحو ذلك الذي هو من الانقياد فإنه يوجب فيها قول لا إله إلا الله، فهي من اللوازم التي لا تنفك عنها، لذلك قال هذا، فهو يقول: "وإن كان أصل الإيمان هو ما في القلب" أو "ما في القلب واللسان"، لماذا؟ لأن أصل الإيمان من لوازم قول اللسان، وأيضاً يقول ابن تيمية في مثل هذه المسألة: "وكلام الله خبر وأمر، فالخبر يستوجب تصديق المخبر، والأمر يستوجب الانقياد له والاستسلام، وهو عمل جماعة الخضوع والانقياد للأمر وإن لم يفعل المأمور به، فإذا قوبل الخبر بالتصديق والأمر بالانقياد، فقد حصل أصل الإيمان في القلب" وهذا كلام ممتع لابن تيمية، وقد تأوله كثير من المعاصرين، والكلام واضح، فهو قال أن كلام الله خبر وأمر، فالخبر يستلزم تصديق المخبر، فلا بد من تصديق القلب للأخبار، وطبعاً التصديق كما بينا عند السلف وعند ابن تيمية هو المستلزم لعمل القلب، فليس هو التصديق الخبري المحض، بل هو المستلزم لعمل القلب، ولكن عندما يتحدث ابن تيمية عن التصديق الخبري وأعمال القلوب وحدها فهنا يأتي بمعنى التصديق الخبري فقط، فالخبر يستلزم تصديق المخبر، فهنا التصديق المجرد من أعمال القلب، فلما قال والأمر يستلزم الانقياد له والاستسلام له أراد عمل القلب من خضوع وانقياد للأمر.
إذاً أصل الإيمان هو تصديق القلب وعمل القلب -الانقياد-، فنص ابن تيمية وقال هو عمل جماعة الخضوع والانقياد للأمر وإن لم يفعل

تفصيل شروط لا إله إلا الله عند المتقدمين.

ويمكن بيان هذا من خلال عدة نقاط:
النقطة الأولى: معنى مصطلح الشرط أو المقصود بالشرط.
النقطة الثانية: ما هي شروط لا إله إلا الله بين المتقدمين والمعاصرين.
النقطة الثالثة: ثبوت حكم الإسلام ظاهرا.
النقطة الأولى: معنى كلمة (شرط) أو مصطلح الشرط.

"الشرط" في كلام العلماء عن شروط لا إله إلا الله لا يعنى به المعنى الاصطلاحي-أي في اصطلاح الأصوليين-لأنه ليس في حاجة إلى هذا الاصطلاح، فنحن لا نتكلم في فقه أو أصول، وكل علم له مصطلحاته ورموزه وإشاراته، فلا يصح استخدام مصطلحات أصول الفقه أو الفقه في علم التوحيد، وهكذا كافة العلوم.

فالمقصود بمصطلح شرط هنا إنما يراد بها المعنى اللغوي، وهو "ما يوضع لِيُلْتزَم به"، سواء كان داخلا في حقيقة الشيء وماهيته، أو خارجا عن ذلك، لذا يقول العلماء: شروط "لا إله إلا الله" كذا وكذا، ويُعدّدون أشياء هي من حقيقة كلمة التوحيد، ومن لوازمها التي لا يمكن أن تنفك عنها بحال.

وقد استخدم كثير من أهل العلم المعتبرين "الشرط" بمعناه اللغوي وهم بصدد الكلام على الإيمان كابن تيمية في الصارم المسلول، وابن القيم في الصلاة، والنووي في شرح مسلم، الحافظ ابن حجر في فتح الباري، والمناوي في فيض القدير، والشيخ حافظ حكمي في معارج القبول، والسفاريني في عقيدته، وكذا المعلّقان على السفارينيه: الشيخ ابن سحمان وأبابُطَين، والشيخ ابن باز في أسئلة مجلة البصائر، والشيخ الألباني في حكم تارك الصلاة كما سيأتي في شرح كتاب الإيمان لابن تيمية بإذن الله تعالى.

النقطة الثانية: ما هي شروط لا إله إلا الله بين المتقدمين والمعاصرين.

ويمكن بيان هذه النقطة من خلال أمرين:

الأمر الأول: شروط لا إله إلا الله عند المتأخرين والمعاصرين.

الأمر الثاني: تفصيل شروط لا إله إلا الله عند المتقدمين.

أولا: شروط لا إله إلا الله عند المتأخرين والمعاصرين:

ويمكن بيان هذا من خلال عدة أمور:

الأمر الأول: حقوق ولوازم وقيود وشروط لا إله إلا الله.

الأمر الثاني: شروط لا إله إلا الله عند المعاصرين.

الأمر الأول: حقوق ولوازم وقيود وشروط لا إله إلا الله.

كلمة التوحيد –كما سبق بيانه-ليس مجرد نطق باللسان فقط، وقد يعتقد بعضنا إنها مجرد كلمات يسيره يمكن النطق بها في أي وقت، ولكنها كلمة عظيمة، لها معنى عظيم جدا، لا يستحق العبادة إلا الله تعالى، والكفر بكل من سواه، وهذه الكلمة ليس نطق باللسان دون اعتقاد بالقلب ومحبة وتعظيم وخشية واخلاص وانقياد واستسلام وخضوع.

فشهادة التوحيد مقيد بقيود ثقال؛ لا ينتفع قائلها إلا باستكمالها. ولو كان القول المجرد لها كافيا لانتفع بها المنافقون؛ فإنهم قد نطقوا بها وأظهروها، ومع ذلك هم في الدرك الأسفل من النار، لكفرهم بخلو قلبهم عن قول القلب وعمل القلب، فإن نطقها مع تصديقه وعلمه ويقينه ومحبته واخلاصه وتعظيمه وانقياده وخضوعه وامتثاله لمقتضاها انتفع بها في الآخرة، لأن الانتفاع بها يكون في الآخرة، أما الانتفاع بها في الدنيا يدخل فيها المنافقون الكفار في الباطن.

ومنهم من يقولها جاهلا بما وضعت له وبما دلت عليه من نفي الشرك والبراءة منه، والصدق والإخلاص وغيرها، كعدم القبول ممن دعا إليها علما وعملا، وترك الانقياد بالعمل بما تقضيه... ومنهم من يمنعه من محبتها والعمل بها ما قام بقلبه من كبر أو هوى أو غير ذلك من الأسباب، وهي كثيرة. كما سيأتي بعضها في نواقض لا إله إلا الله.

وهذه الحقوق والقيود قد تعارف كثير من أهل العلم على تسميتها بشروط لا إله إلا الله؛ ووجه إطلاق "الشروط" عليها: كونها شروط للانتفاع بها في الدنيا والآخرة؛ فمتى انتفت هذه الشروط أو أحدها انتفى الانتفاع بها.

والتنصيص على أن للا إله إلا الله شروطا مشتهر في كلام بعض أهل العلم. ومن ذلك:

1 - قول الحسن البصري للفرزدق وهو يدفن امرأته:" ما أعددت لهذا اليوم؟ فقال الفرزدق: شهادة أن لا إله إلا الله منذ سبعين سنة، فقال الحسن: نعم العدة؛ فإن اللا إله إلا الله شروطا؛ فإياك وقذف المحصنة". وفي رواية: " هذا العمود؛ فأين الطب؟". والطب: «الحبل شد به الخيمة ونحوها.

وقيل له: إن ناسا يقولون: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة؟ قال: من قال لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة".

2 - وقيل لوهب بن منبه: أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله؟ قال: بلى، ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك ".

3 - وقال ابن رجب – نقلا عن طائفة من العلماء :" إن كلمة التوحيد سبب مقتض لدخول الجنة وللنجاة من النار، لكن له شروط".

4 - وكون أن لا إله إلا الله" لها شروطا لم يختص بها أهل السنة؛ بل قال بعضها بعض الأشاعرة، ومنهم، عبد القاهر البغدادي الأشعري حيث قال: « إن الركن الأول من أركان الإسلام - كما ورد به الخبر - شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ولهذه الشهادة شروط... ".

ومن أول من قال بذلك الشيخ عبد الرحمن بن حسن؛ حيث حصر شروط لا إله إلا الله في سبعة؛ هي: العلم واليقين والقبول والانقياد والصدق والإخلاص والمحبة).

والشيخ عبد الرحمن بن حسن جعلها في كتابه "قرة عيون الموحدين"، ثمانية بزيادة: الكفر بما يعبد من دون الله، وتابعه على هذا: الشيخ ابن قاسم في حاشتيه على ثلاثة الأصول.

إذا الشيخ عبد الرحمن بن حسن له قولان في عد شروط لا إله إلا الله: سبعة وثمانية، وإلى كونها سبعة ذهب أكثر من عدها –كما سبق- ورأي أن هذا أقرب؛ وذلك لأن الكفر بما يعبد من دون الله داخل في معنى كلمة التوحيد ومن حقيقتها ومما تتضمنه – كما سبق بيانه- والشيء لا يشترط في نفسه. لأن شهادة أن لا إله إلا الله دلت على الكفر بما عبد من دون الله تضمنا لا التزاما. إذن الكفر بما يعبد من دون الله هو أحد ركنيها وليس شرطا في الانتفاع بها

ويمكن أن يقال: إن بيان كون الكفر بما يعبد من دون الله يدخل ضمن الشروط فيه تسامح؛ نظرا لأهمية هذا الموضوع وكثرة الغفلة عنه، وليس المقام إلا مقام شرح وبسط وبيان لهذه الكلمة العظيمة، وما هذه التقسيمات والتفريعات المتعلقة بهذه الكلمة إلا تحقيق لهذا الهدف.

وطبعا كثير من أهل العلم تلقوا هذه الشروط بالقبول، واعتمدوها في مصنفاتهم وشروحهم" وهذه الشروط عند التأمل حاصرة لأصول الأعمال القلبية والعملية التي لا قيام للتوحيد إلا بها، وما عداها-مما يشترط لصحته-عائد إليها، وهذا الشروط دالة عليها إما بالتضمن أو الالتزام"

وأنبه هنا إلى أن النطق بكلمة التوحيد لم يذكر ضمن شروطها -كما يذكره بعضهم -لأن البحث ليس في إثبات أن شرط الدخول في الإسلام هو النطق بها؛ وإنما البحث فيما يشترط للانتفاع بها؛ فالنطق جزء من الشهادة، والشيء لا يشترط في نفسه.

الأمر الثاني: شروط لا إله إلا الله عند المعاصرين.

الشرط الأول: العلم المنافي للجهل

ويمكن بيان هذا الشرط من خلال بيان عدة أمور:

الأمر الأول: أمر الله تعالى عباده بهذا العلم.

الأمر الثاني: معنى العلم.

الأمر الثالث: الأدلة على هذا العلم.

الأمر الرابع: تعليق على هذا الشرط.

الأمر الأول: أمر الله تعالى عباده بهذا العلم:

وقد أمر سبحانه عباده به قال تعالى:"فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ" [هود:14). قال البغوي: "أي: فاعلموا أن لا إله إلا هو".

كما أمر الله سبحانه به نبينا محمدا عليه الصلاة والسلام -والأمر لأمته أيضا – قال تعالى: "فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ" [محمد:19]. قال الإمام الطبري: "ويقول تعالى ذكره لنبيه محمد: فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهية ويجوز لك وللخلق عبادته إلا الله الذي هو خالق الخلق ومالك كل شيء، يدين له بالربوبية كل ما دونه".

وهذا الشرط بدهي؛ لأن الإيمان بالشهادة والانقياد لها لا يتحقق إلا بعد العلم بمعناها، والجاهل بذلك لا تنفعه؛ لجهله بما وضعت له الوضع العربي الذي أريد منها؛ من نفي الشرك وإخلاص العبادة لله وحده". والسؤال: كيف ينفي ما نفت ويثبت ما أثبتت وهو لا يعلم شيئا من ذلك، أم كيف يعمل بمقتضى ما لا يعلمه!. وقد تقدم أن الشهادة لا تكون شهادة إلا بالعلم بالمشهود به. وفي هذا قال المعلمي اليماني: " وقد دل الكتاب والسنة والإجماع والمعقول على أنه لا يكفي النطق بها بدون معرفة معناها . ".

الأمر الثاني: معنى العلم:

العلم بمعنى (لا إله إلا الله) نفيا وإثباتا يكون: نفيا بنفي الألوهية استحقاق العبادة عن غير الله، وهو الكفر بالطاغوت، وإثباتا بإثبات الألوهية واستحقاق العبادة لله وحده وهو الإيمان بالله، قال تعالى: "فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ

لِذَنبِكَ" [محمد: ١٩]، فبدأ بالعلم قبل العمل، وقال الله تعالى: "فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا"[البقرة: ٢٥٦]، فسرها غير واحد من السلف أنها: لا إله إلا الله ، وأما مقتضى (لا إله إلا الله) فهو: ترك الشرك.

والعلم بلا إله إلا الله له أصل وكمال:

أولا: أصل العلم الذي هو شرط في لا إله إلا الله، هو العلم الإجمالي بمعناها نفيا وإثباتا، وليس العلم التفصيلي، ولكن ما معنى نفيا وإثباتا؟ يعني معناها: لا معبود بحق إلا الله، أي: أنه لا يعبد إلا الله. أي من يقول (لا إله إلا الله) إجمالا ولا يعرف تفاصيل أنواع العبادات، فهو عنده التعظيم والمحبة أو الخضوع والانقياد، كل هذا إجمالا هذا أصل معنى لا إله إلا الله، أنه لا يجعل ذلك لغير الله.

ثانيا: العلم التفصيلي بـ "لا إله إلا الله" وهو يقتضي الدين كله، فالعلم يتفاوت، فحقيقة العلم بمعنى لا إله إلا الله على الكمال هو العلم بالدين كله، فلأن العلم بلا إله إلا الله أي لا معبود حق إلا الله، فلابد من معرفة العبادات، والعبادة تشمل الدين كله-اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، وهذا هو العلم التفصيلي الكامل بلا إله إلا الله.

وهذا من أكثر ما يتم الخطأ في التكفير بسببه، حيث يشترط كثير من المشايخ والعلماء العلم بمعنى لا إله إلا الله نفيا وإثباتا، ويقصدون بمعناها الذي هو شرط فيها هو المعنى الاجمالي لا التفصيلي، فمن لم يفرق بين العلم الإجمالي الذي هو شرط في لا لإله إلا الله وبين العلم التفصيلي ضل وأضل كما فعل بعضهم ممن يكفر بجهل الناس ببعض أنواع العبادة أو ببعض تفاصيل العقيدة، فمثلا يكفر من لم يعرف اسم الملائكة، أو من لم يعرف أسماء الأنبياء أو نحو ذلك، لأنه لم يفرق بين العلم الإجمالي الذي هو شرط في لا إله إلا الله والعلم التفصيلي الذي هو بعد معرفته لابد من التصديق به وعدم نقضه، أما الشرط ابتداء في لا إله إلا الله معرفة معناها اجمالا بأن الله المستحق للعبادة دون غيره، أما العلم بالتفصيل ليس شرطا في لا إله إلا الله، فمثلا من كان جاهلا بأن أن سيدنا يونس نبي من أنبياء الله تعالى، فهل يشترط عند كل المسلمين في العالم أو يشترط لمن دخل في الإسلام أن يقر بأن سيدنا يونس من المرسلين؟!، طبعا لا يوجد عالما يقول ذلك، وهكذا العلم بتفاصيل الإيمان بالجنة والنار وما في اليوم الآخر من الحساب والجزاء، وهكذا في تفاصيل أحكام الشريعة، فمثلا اعتقاد حجب ابن الابن بالابن هذا الاعتقاد عبادة، ومعلوم إن أغلب المسلمين لا يعرفون هذه المسائل، وهكذا كون الجدة ترث السدس هذه عبادة اعتقادية، وأيضا تنفيذ عملي عندما يكون عندنا تقسيم ميراث مثلا، وأغلب الناس لا يعلمون هذه المسائل، فهم جهلة بها، فهل يكون كافرا أو هذا مناقض للا إله إلا الله؟، طبعا لا، لأن هذا من العلم التفصيلي، والمناط بشرط لا إله إلا الله هو العلم الإجمالي المخصوص كما تقدم بيانه.

الأمر الثالث: الأدلة على هذا العلم:

ومن الأدلة على هذا الشرط:

الدليل الأول: قوله تعالى: "إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" الزخرف:86].

قال الطبري: "وشهادته بالحق هو إقراره بتوحيد الله؛ يعني بذلك، إلا من آمن بالله، وهم يعلمون حقيقة التوحيد ".

وقال البغوي: « وأراد بشهادة الحق قول لا إله إلا الله - كلمة التوحيد - وهم يعلمون بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم ".

وقال الآلوسي: « إلا من شهد بالحق الذي هو التوحيد، "وهم يعلمون" أي: يعلمونه؛ الجملة في موضع حال، وقُيد بها لأن الشهادة عن غير علم بالمشهود به لا يعول عليها".

الدليل الثاني: قال الله عز وجل: "فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ " (محمد: ١٩] ، فبدأ بالعلم قبل العمل، وقال الله تعالى: " فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا" [البقرة: ٢٥٦)، فسرها غير واحد من السلف أنها: لا إله إلا الله ، وأما مقتضى (لا إله إلا الله) فهو: ترك الشرك.

الدليل الثالث: قوله عليه الصلاة والسلام: "من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة". فهذا الحديث صريح في أن من نطق بكلمة التوحيد مع علمه بها فهو ناج عند الله. قال الشيخ ابن عثيمين في الحديث: "أي مع نطقه بها؛ فيقيد هذا الحديث بما سبق من قول لا إله إلا الله، أما مجرد العلم بدون أن ينطق بها اللسان فإنه لا يكفي؛ بل لا بد من القول والعمل".

الأمر الرابع: تعليق على هذا الشرط.

إن عند كثير من المعاصرين كما تقدم إن العلم منافي للجهل، سواء الجهل البسيط أو الجهل المركب، وفي الحقيقة العلم عند السلف مرادف لليقين ومرادف للتصديق ومرادف للاعتقاد ومرادف للإقرار ونحوها من الألفاظ الست الآتي بيانها، فالعلم الذي هو قول القلب عند السلف ليس منافيا للجهل البسيط أو المركب فقط، بل منافي للشك والتردد ومنافي للتكذيب بنوعيه تكذيب الخبر وتكذيب المخبِر، ومنافي للإعراض، هذا باعتبار الأصل في إطلاق العلم على قول

القلب فقط، وعند السلف العلم الذي هو قول القلب أو تصديق القلب مستلزم لعمل القلب، وفي هذه الحالة أي: كون العلم مستلزما لعمل القلب في حالة عدم وجود موانع وسالم من المعارض الغفلة والشهوات، فيناقضه بهذا المفهوم المستلزم لعمل القلب ينافي الاستكبار والاباء والعناد والنفاق ونحو ذلك، فمع وجود هذه الموانع لا يستلزم أعمال القلوب من محبة وتعظيم وخشية ونحوها.

الشرط الثاني: اليقين المنافي للشك

ويمكن بيان هذا الشرط "اليقين" من خلال بيان عدة أمور:
الأمر الأول معنى اليقين.
الأمر الثاني: الأدلة عليه.
الأمر الثالث: تعليق على هذا الشرط.
الأمر الأول معنى اليقين:
واليقين هو:"العلم الراسخ في القلب الثابت فيه". ولا يوصف به إلا من اطمأن قلبه علما وعملا ". وقد بينت معنى اليقين في اللغة والشرع والاصطلاح من قبل في رسالة اليقين فلن أعيده هنا، وقد بينت من قبل إن اليقين علما وعملا، أي: يستلزم اليقين العمل بما أيقنه، ولكن بشرط إذا كان سلاما عن المعارض أو عدم وجود موانع من شبهات وشهوات بحيث لا يكون (عرضة للريب والشك والموانع). إذا المقصود أن يوقن القائل بمعناها يقينا يزول معه الشك والريب. وفي هذا يقول الشيخ حافظ الحكمي: "والثاني: اليقين المنافي للشك؛ بأن يكون قائلها مستيقنا بمدلول هذه الكلمة يقينا جازما؛ فإن الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظن، فكيف إذا دخله الشك". وقال ابن عبد الهادي: "فإن من شروط كلمة الإخلاص باللسان: التصديق بذلك وتحقيقه بالقلب وإلا فهو منافق".

الأمر الثاني: الأدلة عليه.

ومن الأدلة على اشتراط اليقين:
1 - قوله تبارك وتعالى: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا" [الحجرات:١٠]. فدلت الآية على أن الشك إذا تعلق بأصل الإيمان فإنه يتنافى والإيمان،لأن الشك أنواع منه ما يتعلق بالايمان المطلق، فينقص من الايمان المطلق ولكنه لا يكفر، ومنه ما يتعلق بأصل الايمان كما سيأتي، فهنا الشك المنافي لأصل الايمان هو المشروط في لا إله إلا الله، إذن لا بد في الإيمان الصادق من استيقان القلب، بخلاف حال أهل الشك والريب الذين قال الله عنهم :" وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ " التوبة 45.".
2 - وقوله عليه الصلاة والسلام:"من أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يَلَقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة" وقوله صلى الله عليه وسلم:" فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة"، والمعنى في الحديثين واحد؛ فالحديث الأول نفى الشك (غير شاك) ونفي الشك يفيد ثبوت اليقين، والحديث الثاني ثبوت اليقين، وثبوت اليقين يفيد نفي الشك. والحديث واضح صريح جدا في أن النفع المذكور هو في النفع في الآخرة وهو دخول الجنة في قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الأول إلا دخل الجنة، وفي الحديث الثاني (فبشره بالجنة)، وليس المقصود من هذا الشرط أننا نمتحن الناس، أموقن أنت أم شاك؟، كما سيأتي عن بعض المخالفين. قال الشيخ حافظ الحكمي في هذا الشرط:" فاشترط في دخول قائلها الجنة أن يكون مستيقنا بها قلبه غير شاك فيها؛ وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط".

الأمر الثالث: تعليق على هذا الشرط.

كون اليقين في الحديث وفي اللغة هو اليقين المستلزم لعمل القلب، وليس هو اليقين الخالي من عمل القلب كما تقدم بيانه، بل اليقين عند السلف مرادف للتصديق المستلزم لعمل القلب، ومرادف للاعتقاد المستلزم لعمل القلب، ومرادف للمعرفة المستلزمه لعمل القلب، ومرادف للإقرار المستلزم لعمل القلب، كما سيأتي بيانه في هذه المحاضرة بإذن الله تعالى، وعليه فإن اليقين عند السلف ليس منافيا للشك والتردد فقط، بل منافي للجهل سواء الجهل البسيط أو الجهل المركب، لأن اليقين من جنس العلم وهو قول القلب وعلمه وتصديقه واعتقاده ونحوها من الألفاظ المترادفة، وأيضا اليقين منافي للتكذيب ومنافي للإعراض، وطالما إن اليقين عند السلف هو المستلزم لعمل القلب، فهو منافي للكبر والاباء والعناد والانقياد والخضوع والمحبة ونحوها من أعمال القلوب، لأن اليقين لا يكون يقينا عند السلف إلا إذا كان مستلزما لعمل القلب، وبدون هذا الاستلزام لا يكون يقينا، وهكذا في التصديق لا يكون تصديقا عند السلف إلا إذا كان مستلزما لأعمال القلب وأولها وأصلها المحبة. وفي هذه الحالة أي: كون اليقين مستلزما لعمل القلب في حالة عدم وجود موانع وسالم من المعارض الغفلة والشهوات، فيناقضه بهذا المفهوم المستلزم لعمل

القلب ينافي الاستكبار والاباء والعناد ونحو ذلك، فمع وجود هذه الموانع لا يستلزم أعمال القلوب من محبة وتعظيم وخشية ونحوها.

الشرط الثالث: الإخلاص المنافي للشرك

ويمكن بيان هذا الشرط من خلال عدة أمور:
الأمر الأول: معنى هذا الشرط.
الأمر الثاني: الأدلة عليه.
الأمر الثالث: تعليق على هذا الشرط.
الأمر الأول: معنى هذا الشرط.
المقصود باشتراط الإخلاص في هذا المقام ليس إخلاص العبادة لله وإفراده بها ونفي الشرك؛ فهذا ما دلت عليه كلمة التوحيد مطابقة؛ وإنما المقصود الإخلاص في قول لا إله إلا الله على وجه الخصوص، فلا يقصد بقولها إلا وجه الله دون أدنى شائبة من الشرك، ولا شك أن هذا يستتبع ويستلزم إخلاص العبادة كلها لله. ولكن إخلاص العبادة كلها لله متعلقة بالعلم التفصيلي لا الإجمالي، أما العلم الإجمالي يستلزم منه إخلاص مخصوص وهو قصد وابتغاء وجه الله دون أدنى شائبة من الشرك.
الأمر الثاني: الأدلة عليه.
1 – قال الله تعالى: "وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ" البينة: 5].
2 - قوله عليه الصلاة والسلام: (أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه، أو نفسه).
3 - وقوله عليه الصلاة والسلام: "لن يوافي عبد يوم القيامة لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله إلا حرم الله عليه النار"، وفي رواية: "فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله".
الأمر الثالث: تعليق على هذا الشرط.
كون الإخلاص ليس منافيا للشرك فقط عند من يفرق بين الشرك والكفر، فالكفر أعم من الشرك، فيكون الإخلاص منافيا للكفر وليس للشرك، فكل شرك كفر، وليس كل كفر بطبيعة الحال شركا كالملاحدة مثلا. فيكون الإخلاص منافيا للكبر والعناد والاباء والنفاق وكلها من موجبات الكفر، وليست منحصرة في كونها منافية للشرك فقط.
وسيأتي التلازم بين المحبة والإرادة والإخلاص والخضوع والانقياد والاستسلام والقبول كلها بمعاني مترادفة يجمعهم كلمة "الالتزام" = إلتزام الطاعة. فشروط لا إله إلا الله عند المتقدمين هو أصل عمل القلب كاملا وليس المحبة والانقياد والقبول من أعمال القلوب فقط كما عند كثير من المعاصرين الذين حددوا شروط لا إله إلا الله بسبعة أو ثمانية كما تقدم، وسيأتي الآن تفصيل ذلك عند المتقدمين.

الشرط الرابع: الصدق المنافي للكذب

ويمكن بيان هذا الشرط من خلال بيان عدة أمور:
الأمر الأول: المقصود بهذا الشرط.
الأمر الثاني: الأدلة عليه.
الأمر الثالث: تعليق على هذا الشرط.
الأمر الأول: المقصود بهذا الشرط.
والمقصود بهذا الشرط أن يكون صادقا في قولها؛ بحيث يواطئ قلبه لسانه.
ومن هذا الباب قول المنافقين، فيكون الصدق منافي للنفاق؛ لأن المنافقين يقولونها، لكن لم يطابق ما قالوه لما يعتقدونه؛ فصار قولهم كذبا لمخالفة الظاهر للباطن
الأمر الثاني: الأدلة عليه.
ومن الأدلة على هذا اشتراط الصدق في الانتفاع بلا إله إلا الله:
1 - قوله عليه الصلاة والسلام: "ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار". قال الشيخ حافظ الحكمي: "فاشترط في إنجاء من قال هذه الكلمة من النار أن يقولها صدقا من قلبه؛ فلا ينفعه مجرد التلفظ بدون مواطأة قلب".
2 - كما يدل على هذا الشرط الأدلة التي فيها بيان حال المنافقين وكفرهم لتكذيبهم
ومنها قوله تعالى:" فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ " [البقرة:١٠] الآيات.

ومنها قوله تعالى:" إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ" [المنافقون:1].
ومنها قوله تعالى: "يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ " الفتح:١١.

الأمر الثالث: تعليق على هذا الشرط.

وفي الحقيقة الصدق ليس منافيا للكذب فقط بل منافيا للشك والتردد أيضا، فلا يسمى الشاك والمتردد صادقا، فالصدق جزم لا تردد فيه، وأيضا منافي للإعراض فالمعرض لا يكذب ولا يصدق، والصدق مستلزم لعمل القلب من محبة وتعظيم وخشية ونحوها من أعمال القلوب عند المتقدمين من السلف كما سيأتي، فالتصديق أو الصدق ليس منافيا للكذب فقط كما عند كثير من المعاصرين، وإنما منافيا للكذب والشك والتردد والاعراض، هذا التصديق الخبري، أما التصديق المستلزم لعمل القلب الذي هو التصديق الإذعاني - كما تقدم بيناه في المحاضرة السابقة وكما سنبين بتفصيل في هذه المحاضرة- فإن هذا التصديق ليس منافيا للجهل بنوعيه ولا للكذب بنوعيه ولا للشك والتردد فقط ولا للاعراض فقط، بل منافيا للكبر والعناد والاباء والنفاق ونحوها. وسيأتي في المحاضرة القادمة بإذن الله تفصيل الحديث عن أنواع الكفر السابقة.

الشرط الخامس: المحبة المنافية لعدمها.

ويمكن بيان هذا الشرط من خلال عدة أمور:
الأمر الأول: المقصود بهذا الشرط.
الأمر الثاني: الأدلة عليه.
الأمر الثالث: تعليق على هذا الشرط.
الأمر الأول: المقصود بهذا الشرط:
المقصود بهذا الشرط محبة ما دلت عليه من الإخلاص لله ونبذ الشرك، يقول الشيخ حافظ الحكمي في هذا:"المحبة لهذه الكلمة ولما اقتضته ودلت عليه، ولأهلها العاملين بها الملتزمين لشروطها، وبغض ما ناقض ذلك".
وطبعا أصل هذه المحبة وأساسها محبة الله سبحانه ومحبة رسوله عليه الصلاة والسلام. فإن هذه المحبة أصل التوحيد وروحه، وعمدة الإسلام وعموده، وعليه فمن لا محبة له لا توحيد له ولا إسلام البتة.
يقول ابن القيم عن محبة الله سبحانه:" هي أصل عقد الإيمان الذي لا يدخل فيه الداخل إلا بها ولا فلاح للعبد ولا نجاة له من عذاب الله إلا بها... ومن لم يتحقق بها علما وحالا وعملا لم يتحقق بشهادة أن لا إله إلا الله؛ فإنها سرها وحقيقتها ومعناها".
الأمر الثاني: الأدلة عليه.
1 - قوله تعالى:" وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ " [البقرة:165].
2 - وقوله عليه الصلاة والسلام: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين"
ومن أحب الله ورسوله عليه الصلاة والسلام أحب دين الله وما جاء به رسوله عليه الصلاة والسلام ولا بد. ويتفرع عن هذه المحبة محبة المؤمنين والولاء لهم، وبغض الكافرين والبراءة منهم.
3 - ومن شواهد هذا في كتاب الله: قوله تعالى:" قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ" [الممتحنة]
4 - قوله تعالى:"فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ."[المائدة: 54]،
5 - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين". متفق عليه

الأمر الثالث: تعليق على هذا الشرط.

وفي الحقيقة شرط المحبة هو أعظم الشروط، فهو أول لوازم العلم والتصديق واليقين، فكما تقدم عند السلف العلم والاعتقاد والمعرفة والاقرار والتصديق مستلزمين لعمل القلب، وأول أعمال القلوب هو المحبة ولوازم المحبة من التعظيم والخشية، فنفي المحبة عن الله ورسوله، هو نفي للامتثال والتزام الطاعة، وهو منافي للاستكبار والاباء والعناد والنفاق ومنافي للشرك والكفر بأنواعه، وليس منافيا للبغض والكُرْه فقط كما عند كثير من المعاصرين.
فأصل الحب الذي هو شرط في لا إله إلا الله: هو القدر من الحب الذي يجعلك تقف من الوحي موقف السمع والطاعة. وانتفاء هذا معناه عدم الحب. بل البغض والكُرْه. وهذا كفر. قال تعالى " ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ

أَعْمَالَهُمْ". فلماذا حبطت أعمالهم لأنهم كرهوا ما أنزل الله تعالى، انتفى عندهم أصل الحب الذي يجعلهم يقفوا من الوحي موقف السمع والطاعة.
وقوله تعالى:" وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ". إذن عدم تقبل أعمالهم من صلاة وصدقات وانفاق لأنهم كفروا بالله تعالى، وكفرهم هنا هو عدم محبة لله تعالى ولا محبة رسوله، فمن كان عنده أصل المحبة لله ولرسوله سيعمل الأعمال وهو ممتثلا لأوامر الله تعالى، أما هؤلاء منتفي عنهم أصل المحبة لله تعالى، فهم لا يفعلونها إلا كارهين لها نفاقا منهم.

الشرط السادس: القبول المنافي للاستكبار والعناد.

ويمكن بيان هذا الشرط من خلال عدة أمور:
الأمر الأول: المقصود بهذا الشرط.
الأمر الثاني: الأدلة عليه.
الأمر الثالث: تعليق على هذا الشرط.
الأمر الأول: المقصود بهذا الشرط:
والمقصود بهذا الشرط في كلمة التوحيد: "أن يقبل ما دلت عليه من إخلاص العبادة لله وحده، وترك عبادة ما سواه، وأن يلتزم بذلك ويرضى به".
وتوضيح هذا الشرط: أن كلمة التوحيد لا تنفع صاحبها إذا نطق بها عالما بمعناها، مستيقنا بمقتضاها، مصدقا بها، حتى يقبلها ويلتزم العمل بها. وبيان ذلك أن النطق بالشهادة الذي ينفع صاحبه هو الذي يكون بمثابة العهد والميثاق والبيعة على قبول الإسلام والرضا به دينا والتزام العمل به".
فإن من الناس من يوقن بصحة مدلول الشهادة، ويصدق بأن الإسلام هو الدين الحق لكنه يأبى الدخول فيه لكبر أو خوف أو غرض دنيوي أو لغير ذلك الأسباب؛ كحال أبي طالب وكثير من اليهود وحال فرعون وإبليس، وكثير من المستشرقين في العصر الحاضر؛ فإن الواحد من هؤلاء لا ينفعه هذا التصديق ما لم يلتزم أحكام الإسلام؛ بل لو أضاف إلى هذا التصديق ترديد شهادة التوحيد إعجابا بها -مثلا-وليس إعلانا للدخول في الإسلام وقبوله؛ فإنه لا ينفعه.
والمقصود أن" من شرط الاعتداد بكلمة الشهادة أن تكون على سبيل الالتزام ". وسيأتي بيان تفصيلي لمعنى الإلتزام، ومعنى إلتزام الطاعة وأصل الطاعة ونحوها من أعمال القلوب لأن غلط فيها كثير من المعاصرين واعتبروا الالتزام المقصود به عمل الجوارح، وهذا ليس صحيحا كما سنبين أنواع الالتزام. ولا يظن أن اشتراط القبول مؤقت بابتداء الدخول في الإسلام فحسب؛ بل لا تنفعه إلا بالتزام " أن يعمل طول عمره بمضمون كلمة التوحيد ولا يخالفها ". والعمل هنا المقصود به القبول القلبي والانقياد القلبي والاستسلام القلبي وامتثال الطاعة وامتثال الأوامر لله تعالى طول عمره.
"وقبول كلمة التوحيد يقتضي بالضرورة أن يقبل الإسلام كله-أخبارا وأحكاما -فيقابل الأخبار- قرآنا وسنة -بالتصديق؛ فلو رد منها حرفا واحدا فلم يقبله فقد انتقض شرط القبول؛ فانتقضت شهادة التوحيد في حقه. ويقابل الأحكام بالالتزام؛ فيعتقد أنه ملزم ومخاطب ومكلف بها، ولا يسعه الخروج عنها؛ فلو جحد شيئا منها، أو اعتقد أنه غير مخاطب بشيء من أحكامها، وأنه يسعه الخروج عن شريعة النبي عليه الصلاة والسلام في شيء ما -وإن قل– فقد انتقض شرط القبول في حقه؛ فانتقضت شهادة التوحيد".
فهنا جعل القبول متعلق بقول القلب وعمل القلب، قبول الاخبار وقبول الأوامر، فعدم قبول الاخبار وهو تصديقها فهذا مخالف لقول القلب وناقض من نواقضه وهو التكذيب، وعدم قبول الأوامر، فهذا ناقض من نواقض عمل القلب وهو عدم الانقياد والامتثال والخضوع والاستسلام، فالقبول يجمع بين قول القلب وعمله.

الأمر الثاني: الأدلة عليه.

قال الله تعالى: "إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ"

الأمر الثالث: تعليق على هذا الشرط.

وفي الحقيقة هذا الشرط القبول مرادفا إما للتصديق واليقين والعلم المنافي للتكذيب والجهل بنوعيه والاعراض، لأن الجاهل والمعرض والمكذب لن يقبلوا ولن يصدقوا، وأيضا القبول مرادفا للانقياد والالتزام والاذعان والخضوع والاستسلام، المنافي لكفر الاستكبار والاباء والعناد وهذا الكفر هو أن يعرف الحق بقلبه ويصدقه بقلبه ولسانه، ولكنه يأبى أن يذعن له ويلتزم به ويستسلم له بقلبه وجوارحه. أي عنده علم القلب ولكنه لم يلتزم ويخضع له بقلبه أي ليس

معه عمل القلب ولا عمل الجوارح، وإنما عنده علم القلب أو قول القلب وقول اللسان فقط، وهذا الشرط بهذا المعنى الأخير لا يوجد فرق حقيقي بينه وبين الشرط السابع القادم الذي هو الانقياد، فالقبول والانقياد والاذعان والخضوع والاستسلام ونحوها من الألفاظ مترادفة في المعنى ومنافية لشيء واحد وهو الاستكبار والاباء والعناد ومنافي لكفر النفاق.

الشرط السابع عند المعاصرين: الانقياد المنافي للإباء وترك الشرك.

ويمكن بيان هذا الشرط من خلال عدة أمور:

الأمر الأول: المقصود بهذا الشرط.

الأمر الثاني: الأدلة عليه.

الأمر الثالث: فهم مغلوط وجواب إجمالي.

الأمر الأول: المقصود بهذا الشرط.

والمقصود باشتراط هذا الشرط في كلمة التوحيد: يقول الشيخ ابن باز:" الانقياد لما دلت عليه من المعنى، ومعناه: أن يعبد الله وحده وينقاد لشريعته ويؤمن بها ويعتقد أنها الحق؛ فإن قالها ولم يعبد الله وحده ولم ينقد لشريعته، بل استكبر عن ذلك فإنه لا يكون مسلما، كإبليس وأمثاله".

فهنا جعل الشيخ ابن باز الانقياد منافي للاستكبار، وهو هو القبول المنافي للاستكبار والاباء والعناد ولا فرق من هذه الجهة بينهما، فهي ألفاظ لها معاني مترادفة

وفي قرة عيون الموحدين يقول ان مثل :"هؤلاء كثير؛ تركوا الانقياد بالعمل بما تقتضيه -من الإخلاص ونفي الشرك- لكبر أو هوى أو غير ذلك". فنفس الأمر الانقياد منافي للشرك والكبر والهوى المخرج من الملة، لأن الكبر نوعان: منه ما هو منافي لأصل الإيمان وهو المنافي للانقياد والقبول هنا، والكبر المنافي للايمان المطلق كما سيأتي في نواقض لا إله إلا الله بإذن الله تعالى.

الأمر الثاني: الأدلة عليه.

ومنها قوله تعالى:" وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ " لقمان:٢٢]، والعروة الوثقى-كما تقدم-هي «لا إله إلا الله. قال الشيخ حافظ الحكمي: " ومعنى يسلم وجهه أي ينقاد وهو محسن موحد؛ ومن لم يسلم وجهه إلى الله ولم يك محسنا فإنه لم يستمسك بالعروة الوثقى".

الأمر الثالث: فهم مغلوط وجواب إجمالي.

النص الأول: يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن: « السادس: الانقياد المنافي [للترك]؛ لأن من الناس من يقولها وهو يعرف معناها، لكنه لا ينقاد للإتيان بحقوقها ولوازمها من الولاء والبراء والعمل بشرائع الإسلام".

فمن المعاصرين من فهم من قول الشيخ عبد الرحمن ابن حسن"الانقياد المنافي للترك، أي ترك أعمال الجوارح، بما أسموه ترك جنس العمل، وهذا الفهم لهذا النص ليس صحيحا، ويمكن بيان عدم صحته من وجهين:

الوجه الأول: المقصود بالترك، ترك الانقياد بالعمل بما تقضيه كلمة لا إله إلا الله.

وفي هذا يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن:"هذه الكلمة العظيمة لا يحصل رجحانها إلا في حق من أتى بقيودها التي قيدت بها في الكتاب والسنة، وقد ذكر سبحانه في سورة براءة وغيرها كثيرا ممن يقولها ولم ينفعهم قولها، كحال أهل الكتاب والمنافقين على كثرتهم وتنوعهم في نفاقهم، فلم تنفهم مع ما قام بهم من ترك تلك القيود، فمنهم من يقولها جاهلا بما وضعت له وبما دلت عليه من نفي الشرك والبراءة منه، والصدق والإخلاص وغيرها، كعدم القبول ممن دعا إليها علما وعملا، وترك الانقياد بالعمل بما تقضيه؛ كحال أكثر من يقولها قديما وحديثا، ولكن في أواخر هذه الأمة أكثر. ومنهم من يمنعه من محبتها والعمل بها ما قام بقلبه من كبر أو هوى أو غير ذلك من الأسباب، وهي كثيرة... وأما أهل الإيمان الخلص فهم الذين أتوا بهذه الكلمة، واجتمعت لهم قيودها التي قيدت بها، علما ويقينا وصدقا وإخلاصا ومحبة وقبولا وانقيادا وعادوا فيه ووالوا فيه وأحبوا فيه وأبغضوا فيه".

إذن المقصود بالترك هو ترك الانقياد بالعمل بما تقتضيه لا إله إلا الله بنص كلام الشيخ عبد الرحمن بن حسن نفسه.

وفي نفس النص يبين ما تدل عليه وتقتضيه كلمة لا إله إلا الله الذي ترك الانقياد بالعمل بما تدل عليها، فقال:" وبما دلت عليه من نفي الشرك والبراءة منه، والصدق والإخلاص وغيرها،" يعني ترك ما دلت عليه من التوحيد ونبذ الشرك فهنا ذكر الولاء والبراء من الشرك وأعمال القلوب كالاخلاص والمحبة ونحوها.

الوجه الثاني: تفسير معنى الترك من نفس النص.

كون كلام الشيخ عبد الرحمن حسن عن الانقياد المنافي للترك، ثم فسر الترك بعدها بقوله "لا ينقاد للإيتيان بحقوق لا إله إلا الله ولوازمها من الولاء والبراء والعمل بشرائع الاسلام"، أي عدم الامتثال لأوامر الله تعالى ونواهيه، فلم يقف قلبه من الوحي وأوامر الله موقف السمع والطاعة، بل لا ينقاد ولا يستسلم ولا يخضع ولا يلتزم بطاعه الله تعالى ولا امتثال أوامره، ومن كان حال هكذا فهو كافر ونقض عنده عمل القلب من محبة ولوازمها من تعظيم وخشية وانقياد واستسلام ونحوها من أعمال القلوب. االتي لوازم وحقوق لا اله الا الله.

النص الثاني: قال الشيخ حافظ أحمد حكمي: (الانقياد لما دلت عليه، المنافي لترك ذلك)، ولو نلاحظ هو نفس الكلام المنقول عن الشيخ عبد الرحمن ابن حسن، الانقياد لما دلت عليه كلمة التوحيد لا إله إلا الله وما دلت عليه هو كون أن الله هو المستحق العبادة فلابد من التبرأ من عبادة كل من سواه، وهذا هو معنى الولاء والبراء في كلام الشيخ عبد الرحمن ابن حسن السابق، وهو المقصود من كلام الشيخ حافظ الحكمي هنا، فمقصودهما انقياد القلب المنافي لترك التزام القلب -وسيأتي بيان تفصيلي لمعنى الالتزام وأنواعه في هذا اللقاء بإذن الله تعالى- وأيضا الانقياد بنبذ الشرك، فعندنا عملين: عمل قلبي لابد منه، وترك ظاهر للشرك وهو في الحقيقة عمل، فترك الشرك هو العمل الواجب الذي دلت عليه (لا إله إلا الله) بالتضمن.

وبالمثال يتضح المقال:

لو ترك رجل الطاعات الواجبة ولو كانت صلاة أو صوما يقال له: ما منعك أن تصلي إذا أمرك الله؟ ما منعك أن تسجد إذ أمرك الله؟ أو أن تصوم إذ أمرك الله؟ فيجيب: "لم أكن لأسجد "

وشخص آخر يقول:" لقد كنت كسلانا أو متعبا وسأصلي آخر النهار"، أو سأصلي من غدا وسأواظب على الصلاة".

فهناك فرق بين الإجابتين قطعا ويقينا، فالأول ليس عنده أصل الانقياد، وهو مثل إبليس لم يكن عنده أصل الانقياد فلما سأله رب العزة عن تركه السجود الذي أمره به قال:" لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ" الحجر: ٣٣)، فالترك هنا ترك الانقياد والخضوع لاوامر الله تعالى، وهذا هو معنى قول الشيخ عبد الرحمن حسن والشيخ حافظ الحكمي، الانقياد المنافي لترك ذلك، أو ترك الانقياد بالعمل بما تقضيه، فالترك هو ترك الانقياد والخضوع والامتثال لأوامر الله تعالى.

بعكس آدم عليه السلام الذي كان عنده أصل الانقياد، فلما عاتبه الله تعالى قال: " رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ". [الأعراف: ٢٣).

والنصان السابقان واضحان جدا عن الشيخ عبد الرحمن والشيخ حافظ الحكمي وفي نفس النصين المقصود، ترك الانقياد كما قال الشيخ عبد الرحمن حسن، و"الانقياد لما دلت عليه، المنافي لترك ذلك" كما قال الشيخ حافظ الحكمي، أي الانقياد لما دلت عليه كلمة التوحيد، المنافي لترك الانقياد لما دلت عليه كلمة التوحيد، وليس المقصود ترك أعمال الجوارح، وما دلت عليه كلمة التوحيد هو التوحيد وهو كون الله المستحق للعبادة وحده وترك ونبذ الشرك ومن نصوصهم كما تقدم.

النص الثالث: قال ابن تيمية:" (التولي) هو التولي عن الطاعة... فنفى الإيمان عمن تولى عن العمل وإن كان قد أتى بالقول".

ونص ابن تيمية الكامل يقول:" و"التَّوَلِّي " هُوَ التَّوَلِّي عَنْ الطَّاعَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {سَتُدْعَوْنَ إلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} . وَقَالَ تَعَالَى: {فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى} {وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى} وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {لَا يَصْلَاهَا إلَّا الْأَشْقَى} {الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى} وَكَذَلِكَ قَالَ مُوسَى وَهَارُونُ: {إنَّا قَدْ أُوحِيَ إلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى} . فَعُلِمَ أَنَّ " التَّوَلِّيَ " لَيْسَ هُوَ التَّكْذِيبَ بَلْ هُوَ التَّوَلِّي عَنْ الطَّاعَةِ [قلت: أي عدم الانقياد وعدم الامتثال لأوامر الله وعدم التزام طاعة الله وأوامره، فالتولي ليس هو التكذيب الذي هو منافى لعلم القلب وقول القلب ومنافى لتصديق القلب، وإنما التولي عن الطاعة وعن الانقياد وعن الخضوع والالتزام والامتثال لأوامر الله فهو منافي لعمل القلب، وهذا هو أصل الطاعة وبالتالي هو أصل التولي، وعدم وجود أصل الطاعة وهو عدم الامتثال وعدم التزام طاعة الله بعدم امتثال لما أمرنا به، فلن يكون فرع الطاعة وهو عمل الجوارح من باب أولى، لأن عمل الجوارح ناتجة عن قصد القلب وإرادته والتزام طاعة الله ورسوله والامتثال إلى أوامره، فإن انعدم أصل التزام الطاعة، فسينعدم أعمال الجوارح من باب أولى. وسيأتي بيان تفصيلي لمعنى أصل الطاعة أو التزام الطاعة والتزام التنفيذ في هذا اللقاء بإذن الله]

يكمل ابن تيمية كلامه قائلا:"فَإِنَّ النَّاسَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُصَدِّقُوا الرَّسُولَ فِيمَا أَخْبَرَ وَيُطِيعُوهُ فِيمَا أَمَرَ. وَضِدُّ التَّصْدِيقِ التَّكْذِيبُ وَضِدُّ الطَّاعَةِ التَّوَلِّي [قلت: فهنا ابن تيمية كلامه صريح وتقسيمته واضحه، فإن التصديق الذي هو قول القلب متعلق بالأخبار فنصدق خبر الرسول الذي هو علم القلب وقوله وتصديقه، وبالنسبة للأوامر أي أمر الله تعالى متعلق بطاعته وامتثال أمره، فالأمر الواجب علينا هو طاعته وامتثاله، وضد التصديق القلبي التكذيب القلبي، وضد طاعة الله وامتثال أمره وهو عمل قلبي، ضده التولي]

يكمل ابن تيمية قائلا:"فَلِهَذَا قَالَ: {فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى} {وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى} وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ} فَنَفَى الْإِيمَانَ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ الْعَمَلِ وَإِنْ كَانَ قَدْ أَتَى بِالْقَوْلِ. وَقَالَ تَعَالَى: {إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ} وَقَالَ: {إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}. فَفِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ مِنْ نَفْيِ الْإِيمَانِ عَمَّنْ لَمْ يَأْتِ بِالْعَمَلِ مَوَاضِعُ كَثِيرَةٌ كَمَا نَفَى فِيهَا الْإِيمَانَ عَنْ الْمُنَافِقِ.".

فالتولي له أصل وله فرع، كما إن التزام الطاعة له أصل الطاعة وفرع الطاعة، فإن انتفى أصل الطاعة انتفى الفرع لازاما ولابد، وسيأتي بيان ذلك قريبا في تفصيل عمل القلب.

وهنا قول ابن تيمية:" فَنَفَى الْإِيمَانَ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ الْعَمَلِ وَإِنْ كَانَ قَدْ أَتَى بِالْقَوْلِ" بعد الاتيان بالآيات التي تتحدث عن المنافقين، ثم قال بعدها:" فَفِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ مِنْ نَفْيِ الْإِيمَانِ عَمَّنْ لَمْ يَأْتِ بِالْعَمَلِ مَوَاضِعُ كَثِيرَةٌ كَمَا نَفَى فِيهَا الْإِيمَانَ عَنْ الْمُنَافِقِ"، والمقصود إن هذا سياق يتحدث فيه ابن تيمية عن تولي المنافق عن عمل القلب، حتى وإن قال بلسانه الشهادتين يعني القول، ولكنه منتفي عنه محبة الله ورسوله وتعظيمه وخشيته ونحوها من أعمال القلوب،لذا قال ابن تيمية:" :" فَنَفَى الْإِيمَانَ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ الْعَمَلِ وَإِنْ كَانَ قَدْ أَتَى بِالْقَوْلِ"، فهو سياق في بيان كفر المنافقين، وكفر النفاق:

هو أن يظهر التصديق باللسان، ويظهر الانقياد والاستسلام باللسان والجوارح، بينما يكون قلبه خالياً من الاعتقاد.

1 - إما خالياً من التصديق القلبي أصلاً، 2 - وإما خالياً من الانقياد القلبي بالرغم من وجود التصديق.

أولا: حالة كونه خالياً من التصديق القلبي أصلاً. يقول ابن القيم في مدارج السالكين عن كفر النفاق الخالي من التصديق القلبي:"هو أن يظهر بلسانه الإيمان وينطوي بقلبه على التكذيب فهذا هو النفاق الأكبر..".

ثانيا: وإما كونه خالياً من الانقياد القلبي بالرغم من وجود التصديق. وهذا هو المقصود هنا في قول ابن تيمية تولى عن العمل رغم أنه أتى بالقول، يقول حافظ الحكمي: "وإن انتفى عمل القلب من النية والإخلاص والمحبة والإذعان مع انقياد الجوارح الظاهرة، فكفر نفاق: سواء وجد التصديق المطلق أو انتفى، وسواء انتفى بتكذيب أو شك. قال الله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ –إلى قوله- وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) اهـ

لأن هناك تلازم بين عدم الانقياد القلبي وعدم الانقياد بأعمال الجوارح كما تقدم وكما سأبين تفصيلا فيما بعد في عملية التلازم بين الظاهر والباطن في الإثبات.

ثانيا: تفصيل شروط لا إله إلا الله عند المتقدمين.

ويمكن بيان شروط لا إله إلا الله عند متقدي العلماء ببيان الحديث عن قول القلب وعمل القلب والإقرار بالشهادتين. لأن كما تقدم شروط لا إله ألا الله ليست محصوره بعدد، بل هي أصل قول القلب، وأصل أعمال القلوب دون حصر. يعني شروط لا إله عند المتقدمين هي أصل قول القلب وأصل أعمال القلوب كلها دون حصر كما حصرها المعاصرون في المحبة والقبول والانقياد ونحوها.

أولا: قول القلب:

ويمكن بيان قول القلب من خلال عدة أمور:

الأمر الأول: مفهوم قول القلب.

الأمر الثاني: الأدلة عليه.

الأمر الثالث: قيمته واعتباره.

الأمر الرابع: مراتبه أو زيادته ونقصانه.

الأمر الأول: مفهوم قول القلب.

معنى قول القلب هو اعتقاد القلب وتصديقه واقراره أي تحقق القلب من حقيقة الخبر وليس مجرد سماعه الخبر لأن سماع الخبر قد يعقبه تكذيب أو شك، أما التصديق فهو يقين وطمأنينة واستقرار العلم والمعرفة في القلب مما يوجب العمل بما أيقنه كما بينا في شرح رسالة اليقين لابن تيمية بتفصيل، وعليه فلا فرق عند اهل السنة والجماعة بين العلم والتصديق والاقرار والمعرفة والاعتقاد واليقين، بل يستعملون هذه الألفاظ كلها بمعنى واحد كما في نصوص السلف كما سأنقل عنهم الآن، حتى لا يكون كلاما بلا بيان تفصيلي.

والعلم المقصود العلم بصفات الربوبية وحقوق الالوهية يعني قول القلب او العلم او المعرفة المقصود بها العلم بصفات الربوبية وحقوق الالوهية، ولوازم ذلك من عقيدة التوحيد يقول ابن تيمية في ذلك:" فأما قول القلب فهو التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله ويدخل فيه الايمان بكل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، ثم الناس فيه على أقسام؛ منهم من صدق به جملة ولم يعرف التفصيل، ومنهم من صدق جملة وتفصيلا، ثم منهم من يدوم استحضاره وذكره لهذا التصديق، ومنهم من يغفل عنه ويذهل، ومنهم من استبصر فيه بما قذف الله في قلبه من النور والإيمان، ومنهم من جزم به لدليل قد تعترض فيه شبهة أو تقليد جازم".

ويقول ابن القيم في نفس المعنى:" قول القلب هو اعتقاد ما أخبر الله به سبحانه وتعالى عن نفسه وعن اسمائه وعن وافعاله وملائكته على لسان رسوله".

والإقرار والتصديق والعلم واليقين والمعرفة والاعتقاد بمعنى واحد عند السلف، أي أن قول القلب = الإقرار، اليقين، المعرفة، والتصديق = كل هذه الألفاظ الأصل في إطلاقها على قول القلب، ولكن العلماء أحيانا يطلقونها على قول القلب وعمل القلب، باعتبار إطلاق اللفظ على الشيء وعلى لازمه.
ويمكن بيان هذه المسألة من أمرين:
الأمر الأول: الأدلة على إطلاق التصديق على قول القلب ولازمه من عمل القلب.
الأمر الثاني: تفصيل الحديث عن الألفاظ المترادفة.
الأمر الأول: الأدلة على إطلاق التصديق على قول القلب ولازمه من عمل القلب.
في الحقيقية أن إطلاق العلماء لفظ التصديق، على التصديق ولوازمه، أمر ليس بمستنكر، أعنى إطلاق اللفظ على المعنى ولازمه والأدلة عليه-من اللغة ومن القرآن والسنة -كثيرة منها:
1 - منها قول تعالى:" وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا"، يعني أي ياابراهيم قد صدقت الرؤيا، وسيدنا إبراهيم عليه السلام كان مصدقا للرؤية من حين رآها، لأن رؤيا الأنبياء حق، وإنما جُعل مصدقا لها بعد ما فعل ما أمر به، وهو الإقدام على ذبح ابنه، وهو اللازم للرؤيا، فسمى الفعل تصديقا.
2 - ومنه قوله صلى الله عليه وسلم" العينان تزنيان وزناهما النظر، والفَرجُ يصدّق ذلك أو يكذّبه"، فقد أطلق التصديق على عمل الفرج وهو لازم التمني، وتصديق الفرج في الفاحشة وهذا عمل، فجعل التصديق عمل الفرج لما يتمنى القلب، والتكذيب تركه، وهذا صريح في أن التصديق لا يصح إلا بالعمل، ولذلك قال الحسن البصري رضى الله عنه "ليس الإيمان بالتمني أو بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل".
3 - ويؤيد ذلك قوله تعالى:"رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ"، كيف صدقوا؟، وذلك بالعمل، بامتثالهم العمل بما عاهدوا الله عليه، لذا قال ابن تيمية:" ولهذا جعل طائفة من العلماء كالشيخ أبو إسماعيل الأنصاري وغيره الإيمان كله تصديق، فالقلب يصدق ما جاءت به الرُسل، واللسان يصدق ما في القلب (قلت: علم القلب وعمله)، والعمل يصدق القول كما يقال: صدق عمله قوله.
وعليه فألفاظ "التصديق، و"الاعتقاد"، و"المعرفة"، و"الإقرار"، و"اليقين" و"العلم" ونحوها. أحيانا تطلق تارة على قول القلب فقط-وهذا هو الأصل-وتارة تطلق على قول القلب ولازمه وهو عمل القلب، والسياق والقرائن هي التي تحدد.
وعدم إدراك هذا الأمر جعل صاحب كتاب "الإيمان عند السلف وعلاقته بالعمل" يخطّئ الحافظ ابن رجب رحمه عند استعماله لفظ التصديق، وكذلك محقق كتاب "الدّرة "لابن حزم يُخطّئ شارح الطحاوية-ابن أبى العز-عند استعماله لفظ التصديق أيضا...وهذا غير صحيح كما تقدم بيانه، فإن المقصود بالتصديق عندهم هو علم القلب ولوازمه من أعمال القلوب، أي التصديق الإذعاني كما تقدم، وليس المقصود عندهم هو التصديق الخبري العلمي أو الذهني بلا عمل القلب.

الأمر الثاني: تفصيل الحديث عن الألفاظ المترادفة.
والمقصود بالألفاظ المترادفة كما تقدم بيانه، التصديق، الاعتقاد، واليقين، والعلم والمعرفة، والاقرار، والجزم.
أولا: لفظ التصديق.
فالتصديق = الأصل فيه أنه قول القلب، أي المقصود بالتصديق هو اعتقاد الصدق، (وهذا التصديق العلمي الخبري أي اعتقاد الصدق) أي يقع في القلب نسبة الصدق إلى الخبر والمخبر، وهو بهذا المعنى مرادف للعلم والمعرفة مجرد عن لوازمه من أعمال القلوب،
وكثير من العلماء كانوا يطلقون هذا التصديق ليس بهذا المعنى، ولكن يطلقونه على قول القلب وعمله، وكانوا يسمونه (التصديق الاذعاني) أي يطلقونه على التصديق الخبري العلمي وعلى لازمه وهو عمل القلب، وهو التصديق العملي الاذعاني
أي كما بينت إن الست ألفاظ الذين يطلقون على قول القلب عند أهل السنة، الأصل في إطلاق هذه الألفاظ اعتقاد الصدق يعني أن يقع في القلب نسبة الصدق إلى الخبر والمخبِر، وأن هذه الألفاظ مترادفة العلم والتصديق واليقين والاعتقاد والجزم، وأحيانا العلماء يطلقون هذه الألفاظ كلها عليها وعلى لوازمها، فالأصل في إطلاقها أنها تطلق على قول القلب فقط، وأحيانا يطلقونها عليها وعلى لوازمها، وهذا يسمونه التصديق الإذعاني والاعتقاد الاذعاني، سواء نصوا على ذلك أو فهم هذا من صنيعهم.
ومن هؤلاء العلماء 1 – ابن القيم، 2 – الحافظ ابن رجب، 3 – الامام القسطلاني، 4 – الحكمي صاحب معارج القبول، 5 - الامام الآجري، 6 – ابن تيمية.

أولا: يقول ابن القيم:" ونحن نقول الايمان هو التصديق، وليس التصديق مجرد اعتقاد صدق الخبر دون الانقياد له، (قلت: فهنا ينص ابن القيم على إن معنى التصديق ليس مجرد قول القلب دون عمل القلب وهو الانقياد. ثم يكمل ابن القيم كلامه السابق قائلا:" ولو كان مجرد اعتقاد التصديق إيمانا لكان إبليس وفرعون وقومه وقوم صالح واليهود الذين عرفوا أن محمدا رسول الله كما يعرفون أبنائهم مؤمنين مصدقين... فالتصديق إنما يتم بأمرين: أحدهما: اعتقاد الصدق والثاني: محبة القلب وانقياده".

فهنا ابن القيم جمع بين قول القلب وعمله، لأن عمل القلب هنا من لوازم قول القلب، فهنا يطلق اللفظ على الشيء وعلى لازمه.

ويقول ابن القيم أيضا:" إنما الايمان ليس مجرد التصديق وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والإنقياد".

فهنا نص ابن القيم على أن التصديق المقصود عند أهل السنة والجماعة وفي إطلاق السلف هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد. والمقصود بالطاعة هنا هو عزم القلب على الأداء وهو التزام الطاعة والانقياد والاذعان والاستسلام والخضوع والامتثال لأوامر الله، كما بينت في الدرس الخامس للعقيدة في المرحلة الأولى، وكما سيأتي تفصيل ذلك في هذا اللقاء في عمل القلب.

ثانيا: الحافظ ابن رجب يقول:" وقالت طائفة الفرق بين الإسلام والإيمان، أن الإيمان هو التصديق تصديق القلب فهو علم القلب وعمله". فهنا ينقل الحافظ ابن رجب على طائفة من السلف الذين يفرقون بين الإسلام والإيمان، ان الإيمان هو التصديق وأن المقصود بتصديق القلب أنه علم القلب وعمله.

وعليه، عندما يأتي نقل عن ابن رجب أو غيره من أهل العلم يقولون ان الأيمان:"تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل الجوارح" مثلا، فيقصدون بتصديق القلب علم القلب وعمله.

ثالثا: الامام القَسطَّلانِي يقول:" وليس حقيقة التصديق أن يقع في القلب نسبة التصديق إلى الخبر أو المخبر من غير إذعان وقبول، بل هو إذعان وقبول لذلك، بحيث يقع عليه اسم التسليم".

وهذا صريح في المقصود وهو أن التصديق ليس هو التصديق العلمي الخبري، وإنما المقصود بالتصديق هو التصديق الاذعاني، بل هو اذعان وقبول الذي يقع اسم التسليم عليه.

رابعا: الشيخ الحكمي صاحب معارج القبول يقول:" ومن هنا يتبين لك أن من قال من أهل السنة في الإيمان هو: التصديق على ظاهر اللغة، أنهم إنما عنوا التصديق الإذعاني المستلزم للإنقياد ظاهرا وباطنا بلا شك، لم يعنوا مجرد التصديق".

خامسا: الإمام الآجري قال :" اعلموا رحمنا الله وإياكم أن الذي عليه علماء المسلمين، أن الإيمان واجب على جميع الخلق وهو تصديق بالقلب وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح".

فلو حملنا تصديق القلب على قول القلب فقط فأين عمل القلب؟، فالشاهد من كلام الامام الآجري أن تصديق القلب هنا يشمل قول القلب وعمله، لأنه قال تصديق القلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح ولم يقل عمل القلب، فلو تصديق القلب المراد منه الذي يطلق على قول القلب فقط، أين عمل القلب؟ فالمقصود بالتصديق في كلام الامام الآجري إنه قول القلب وعمله، فهو يتحدث عن الايمان الواجب، لذا قال إن الايمان واجب على جميع الخلق، وهذا غلط في فهمه الدكتور محمد آل خضير في فهم كلام الحافظ ابن رجب بل خطأ الحافظ ابن رجب، حيث قال ابن رجب: "ومعلوم أن الجنة إنما يستحق دخولها بالتصديق بالقلب مع شهادة اللسان وبهما يخرج من يخرج من أهل النار فيدخل الجنة" فظن الدكتور محمد آل خضير إن الحافظ ابن رجب أنه يقصد بالتصديق أنه قول القلب، ولكن المقصود بالتصديق في كلام الحافظ هو قول القلب وعمله، هذا المقصود بالتصديق عند الاسلف التصديق الاذعاني.

سادسا: شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال:" ولفظ التصديق يتناول العلم الذي في القلب، ويتناول أيضا ذلك العمل في القلب الذي هو موجب العلم ومقتضاه، فإنه يقال: صدق علمه بعمله، وذلك لأن وجود العلم مستلزم لوجود هذا العمل الذي في القلب، الذي هو إسلام القلب بمحبته وخشوعه..".

فهنا يصرح ابن تيمية بأن لفظ التصديق يطلق على علم القلب وعمله، لأن علم القلب مستلزم لعمل القلب.

ويقول ابن تيمية أيضا:" وَأَمَّا الْإِيمَانُ فَأَصْلُهُ تَصْدِيقٌ وَإِقْرَارٌ وَمَعْرِفَةٌ فَهُوَ مِنْ بَابِ قَوْلِ الْقَلْبِ الْمُتَضَمِّنِ عَمَلَ الْقَلْبِ".

فهنا تصريح منه رحمة الله بأن التصديق والمعرفة والاقرار مترادفات، وهما بمعنى قول القلب المتضمن عمل القلب، فيشمل علم القلب وعمله.

ويقول ابن تيمية:" التَّصْدِيقَ الْمُسْتَلْزِمَ لِعَمَلِ الْقَلْبِ أَكْمَلُ مِنْ التَّصْدِيقِ الَّذِي لَا يَسْتَلْزِمُ عَمَلَهُ.."

وقال أيضا:" فالإيمان في القلب لا يكون إيمانا بمجرد تصديق ليس معه عمل قلب وموجبه من محبة الله ورسوله ونحو ذلك، كما أنه لا يكون إيمانا بمجرد ظن وهوى، بل لابد في أصل الإيمان من قول القلب وعمل القلب".

إذاً يتحدث ابن تيمية عن أن أصل الإيمان تصديق، وليس التصديق المجرد الخبري، بل هو التصديق المستلزم لأعمال القلوب، إذاً عند السلف وعند ابن تيمية التصديق عندما يقول تصديق القلب فإنه لا يقصد به قول القلب، وهذا خطأ

أخطأ به عدة أشخاص من مشايخنا، فهو لا يقصد به قول القلب المجرد وليس معه عمل قلب، بل المقصود به عند السلف أنه التصديق المستلزم لأعمال القلوب.
وقال ابن تيمية أيضا:" ولو أنهم هدوا -يعني الجهمية- لما هُدِي إليه السلف الصالح لعلموا أن الإيمان: قول وعمل، أعني في الأصل: قولا في القلب وعملا في القلب، فإن الإيمان بحسب الله ورسالته يتضمن إخباره وأوامره، فيصدِق القلب إخباره تصديقا يوجب حالا في القلب -يعني من محبة وانقياد ونحو ذلك- بحسب المصدَّق به، والتصديق من نوع العلم والقول، وينقاد لأمره ويستسلم، وهذا الانقياد والاستسلام من نوع الإرادة والعمل، ولا يكون مؤمنا إلا بمجموع الأمرين". يعني التصديق هنا يعني قول القلب مثلاً أو علم القلب أو إقرار القلب، أو اعتقاد القلب، قل كما شئت، فكلها مترادفات، ولكنها مستلزمه لعمل القلب وهو معنى قول ابن تيمية يوجب حالا في القلب.
ويقول ابن تيمية أيضا في المجلد السابع من مجموع الفتاوى:" والمقصود هنا أن الإنسان إذا رجع إلى نفسه عسر عليه التفريق بين علمه بأن الرسول صادق وبين تصديق قلبي تصديقا مجردا عن الانقياد وغيره من أعمال القلب بأنه صادق".
وقول ابن تيمية:" علمه بأن الرسول صادق وبين تصديق قلبي تصديقا مجردا عن الانقياد وغيره"، لعلم ابن تيمية أن هناك بعض العلماء يطلقون التصديق على التصديق ولوازمه.
وقال ابن تيمية في موضع آخر:" فإن الفرق بين معرفة القلب، وبين مجرد تصديق القلب الخالي عن الانقياد الذي يجعل قول القلب أمر دقيق وأكثر العقلاء ينكرونه..".
فهو يقول التصديق الخالي عن الإنقياد، لماذا؟ لأن بعض العلماء كانوا يطلقون التصديق ويقصدون به التصديق المستلزم للانقياد، أي التصديق ولازمه.
والخلاصة: إن الأصل في إطلاق لفظ "التصديق" هو: إطلاقه على قول القلب فقط، أي نسبة الصدق إلى الخبر والمُخْبِر، كذلك بقية الألفاظ الأخرى: "الاعتقاد" "المعرفة" و"اليقين" و"الإقرار"، و"الجزم" ونحوها. ولكن هناك من أهل السنة من يطلق هذه الألفاظ على قول القلب وعلى لازمه وهو عمل القلب، فيكون التصديق عندهم بمعنى "التصديق الإذعاني ". هذا ما يتعلق بلفظ التصديق.

ثانيا: لفظ المعرفة ولوازمها.

نفس المسألة، نطلق لفظ المعرفة على المعرفة ولوازمها، وممن استعمل هذا اللفظ أي معرفة القلب، ويقصد به قول القلب وعلمه، الامام ابن تيمية، والامام البخاري، والامام الطبري، والامام الآجري، والامام ابن منده.
أولا: يقول ابن تيمية:" وَأَمَّا الْإِيمَانُ فَأَصْلُهُ تَصْدِيقٌ وَإِقْرَارٌ وَمَعْرِفَةٌ فَهُوَ مِنْ بَابِ قَوْلِ الْقَلْبِ الْمُتَضَمِّنِ عَمَلَ الْقَلْبِ".
فهنا تصريح منه رحمة الله بأنا التصديق والمعرفة والاقرار مترادفات، وهما بمعنى قول القلب المتضمن عمل القلب، فيشمل علم القلب وعمله.
وقال ابن تيمية عن العلم، وكونه العلم المستلزم لعمل القلب، يقول:"وجود العلم مستلزم لوجود هذا العمل الذي في القلب، الذي هو إسلام القلب بمحبته وخشوعه". فهنا ابن تيمية يبين أن العلم عند عند السلف هو العلم ولوازمه من عمل القلب وهو محبته وخشوعه لله تعالى ولرسوله.
ويقول ابن تيمية:" قال أبو القاسم الأنصاري شيخ الشهرستاني في "شرح الإرشاد" لأبي المعالي، بعد أن ذكر قول أصحابه قال: " وذهب أهل الأثر أن الإيمان جميع الطاعات، فرضها ونفلها، وعبروا عنه بأنه إتيان به فرضا ونفلا، والانتهاء عما نهى عنه تحريما وأدبا. وقال مال إلى هذا المذهب أبو عبد الله بن مجاهد قال: وهذا قول مالك بن أنس إمام دار الهجرة، ومعظم أئمة السلف. رضوان الله عليهم أجمعين- وكانوا يقولون: " الإيمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان. ومنهم من يقول بقول المرجئة: إنه التصديق بالقلب واللسان".
فهنا نقل عن الإمام مالك ومعظم أئمة السلف، كانوا يقولون الإيمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان وعمل بالأركان"، أين عمل القلب؟، فهل أخرج الإمام مالك ومعظم أئمة السلف عمل القلب من الإيمان؟، طبعا لا، ولكن مقصودهم بمعرفة القلب هنا = هو معرفة القلب ولازمها من عمل القلب.
يقول ابن تيمية:" وَقَالَ أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَلَمَةَ الخزاعي قَالَ: قَالَ مَالِكٌ وَشَرِيكٌ وَأَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ وَعَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ وَحَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ وَحَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ: " الْإِيمَانُ " الْمَعْرِفَةُ وَالْإِقْرَارُ وَالْعَمَلُ." ويقصد بالمعرفة هنا قول القلب وعمله والاقرار أي باللسان والعمل أي عمل الجوارح.
وقال ابن تيمية في موضع آخر:" فإن الفرق بين معرفة القلب، وبين مجرد تصديق القلب الخالي عن الانقياد الذي يجعل قول القلب أمر دقيق وأكثر العقلاء ينكرونه...".
فهو يقول التصديق الخالي عن الإنقياد، لماذا؟ لأن بعض العلماء كانوا يطلقون التصديق والمعرفة ويقصدون به التصديق والمعرفة المستلزمة للانقياد، أي التصديق والمعرفة ولازمها.

ثانيا: قال الامام البخاري في صحيحه:" باب أن الرسول أعلمكم بالله": أن المعرفة فعل القلب لقوله تعالى:" يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ". فقوله:"المعرفة فعل القلب" ومعلوم ان الفعل هو عمل من الأعمال، أي المعرفة عمل القلب أي مستلزمه لعمل القلب، فهنا المعرفة تطلق عليها وعلى لازمها من عمل القلب وفعله.
ثالثا: قال الامام الطبري عن مذهب أهل السنة، قال بعضهم: الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح".
والمقصود هنا بمعرفة القلب قول القلب ولازمه من عمل القلب، فأطلق المعرفة على المعرفة ولازمها من عمل القلب.
رابعا: قال الامام ابن منده:" "باب ذكر الأبواب والشعب التي قالها النبي صلى الله عليه وسلم أنها الإيمان، وأنها قول باللسان ومعرفة بالقلب وعمل بالأركان". فالمقصود أيضا هنا بمعرفة القلب قول القلب ولازمه من عمل القلب.
خامسا: قال الامام الآجري:"لا تجزيء المعرفة بالقلب والتصديق إلا أن يكون معه الايمان باللسان نطقا، ولا يجزيء معرفة القلب ونطق اللسان حتى يكون عمل الجوارح". وطبعا التصديق والمعرفة بالقلب = يشملون قول القلب ولوازمه (عمل القلب)، أي هي المعرفة الإذعانية، أو التصديق الإذعاني المستلزم عمل القلب من محبة وتعظيم وخشية وانقياد وامتثال للأوامر.
والمقصود هنا إن المعرفة والعلم عند السلف وفي إطلاقهم ونصوصهم، المقصود بهما قول القلب وعمله. فقد تجد أحد المعاصرين يتهم الإمام البخاري أو الطبري أو الإمام الآجري وابن منده، بل والإمام مالك بالإرجاء لأنهم يقولون الايمان معرفة القلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح، وأخرجوا عمل القلب من الإيمان، هذ الخطأ من المعاصرين لعدم معرفتهم بمعاني هذه الألفاظ عند السلف، وسيأتي بيان بعض أخطاء المعاصرين في فهم معاني السلف لهذه الألفاظ.

ثالثا: الاعتقاد ولوازمه.

فالاعتقاد بالقلب عند السلف يراد به قول القلب وعمله معا أيضا، إذا المراد من اعتقاد القلب هو قول القلب وعمله أو علم القلب وتصديقه ولوازمه من أعمال القلوب، ويمكن كما أسمينا التصديق الاذعاني الموجب لعمل القلوب فهنا الاعتقاد الاذعاني الموجب لأعمال القلوب من الانقياد والمحبة والتعظيم والخضوع، فعندما يذكر أحد العلماء اعتقاد بالقلب يقصد به قول القلب وعمله، وممن استعمل هذا اللفظ أي الاعتقاد، ويقصد به قول القلب وعمله، الامام ابن منده، والامام الالكائي، هؤلاء العلماء:
أولا: ابن منده حيث قال:" ذِكر خبر يدل على أن الايمان قول باللسان واعتقاد بالقلب، وعمل بالأركان، يزيد وينقص".
فهنا الإمام ابن منده، يقول قول باللسان وعمل بالأركان التي هي الجوارح، ويقول واعتقاد القلب، فلو قلنا: المقصود باعتقاد القلب هنا هو قول القلب فقط، فأين عمل القلب؟، فالمقصود هنا باعتقاد القلب هو قول القلب وعمله.
ثانيا: يقول الامام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة: "سياق ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في أن الايمان لفظ باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح".
فهو يقول واعتقاد بالقلب، فلو قصد به قول القلب فقط، فأين عمل القلب؟، وأصلا عمل القلب لو لم يكن موجودا، لن يكون هناك أعمال جوارح أصلا، لأن عمل الجوارح من لوازم عمل القلب من محبة وإرادة تامة وقدرة على الفعل وعدم وجود موانع = يحصل الفعل في الخارج وهو أعمال الجوارح، فهنا هو يطلق اعتقاد القلب على قول القلب وعمله.
ثالثا: يقول الحافظ ابن حجر في الفتح يقول:" فالسلف قالوا: فاعتقاد بالقلب، ونطق باللسان وعمل بالجوارح".
فالمقصود باعتقاد القلب في كلام الحافظ ابن حجر أيضا هنا، قول القلب وعمله.
وهذا ما بينه ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية، فذكر ان الايمان اعتقاد بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان، فمقصوده باعتقاد القلب هو قول القلب وعمله معا أي الاعتقاد ولوازمه من أعمال القلوب، وهذا يبين خطأ فهم عبد الحق التركماني لما استدرك على أبي العز على أن الايمان اعتقاد بالقلب، قال: لا المفروض لا يقول ابن أبي العز ذلك. لأنه فهم من كلامه ان اعتقاد القلب المقصود به علم القلب وتصديقه دون لازمه من عمل القلب والانقياد والامتثال.
رابعا: وهكذا عندما يقول ابن تيمية (اعتقاد القلب) يقصد به علم القلب وعمله وليس المراد منه قول القلب فقط، ومن ذلك قول ابن تيمية:" وَيَتْبَعُ الِاعْتِقَادَ قَوْلُ اللِّسَانِ وَيَتْبَعُ عَمَلَ الْقَلْبِ الْجَوَارِحُ مِنْ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ وَنَحْوِ ذَلِكَ."
انتهى كلام ابن تيمية، وقد بينت أن القول بالشهادتين يتضمن قول القلب وعمله، فقول ابن تيمية:"ويتبع الاعتقاد قول اللسان"، هذا هو مقصوده إن القول باللسان وهو القول بالشهادتين يتضمن قول القلب وعمله كما فصلنا ذلك في اللقاء الماضي.
وقد فهم الدكتور محمد آل خضير من قول ابن تيمية السابق:" ويتبع الاعتقاد قول اللسان" أن الاعتقاد هنا هو قول القلب فقط، وهذا خطأ كما بينا ان الاعتقاد المقصود به هنا هو قول القلب وعمله، حيث قال الدكتور محمد آل خضير:"وقد صرح رحمه الله (أي ابن تيمية صرح-بأن قول القلب أصل لقول اللسان، وأن عمل القلب أصل لعمل الجوارح" ثم نقل كلام ابن تيمية السابق. وهذا الفهم لكلام ابن تيمية خطأ كما بينا، فإنه يقصد باعتقاد القلب هو قول القلب وعمله، أو الاعتقاد المستلزم لعمل القلب وانقياده وخضوعه.

فهنا أنا أبين مقصود كلام السلف وكلام أهل العلم من المتقدمين والمتأخرين، وأبين الفهم الخطأ الذي وقع فيه بعض المعاصرين، حتى عندما تقرؤون للمعاصر تعرفون موضع الخطأ الذي وقع فيه، وسبب وقوعهم في ذلك، عدم معرفتهم بمقصد العلماء من هذه الألفاظ.

رابعا: الإقرار ولوازمه.

يطلق على قول القلب ولوازمه (أي عمل القلب) كما في قوله تعالى:" وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ"

والإقرار في الآية معناها التصديق، ونصره النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا يشمل قول القلب وعمله.

قال ابن تيمية:" ولفظ الإقرار يتناول، للإلتزام والتصديق، ولابد منهما، وقد يراد بالإقرار مجرد التصديق بدون إلتزام الطاعة"

وطبعا قول ابن تيمية الإلتزام والتصديق، فالإلتزام المقصود به عمل القلب، وهو الوقوف من الوحي موقف السمع والطاعة، ولابد منهما، أي: الإلتزام والتصديق، عمل القلب وعلمه، فابن تيمية يقصد إن لفظ الإقرار، يتناول قول القلب وعمله، وقد يراد به مجرد التصديق بدون التزام الطاعة، أي التصديق الخالي من عمل القلب، الذي هو قول القلب فقط، وهذا هو الأصل في إطلاق التصديق وهو الخالي من عمل القلب الذي هو قول القلب.

ويقول ابن تيمية:" فأما أصل الإيمان الذي هو الإقرار بما جاءت به الرسل عن الله تصديقا به وانقيادا له، فهذا أصل الإيمان الذي من لم يأت به فليس بؤمن"

فهنا أطلق الإقرار بما جاءت به الرسل على التصديق والانقياد أي قول القلب وعمله، فعندما يأتي لفظ الإقرار فالمقصود به قول القلب ولازمه من عمل القلب.

أما إطلاق التصديق على إقرار اللسان وعمل الجوارح= فإنه لا يخفى إن إطلاق التصديق على إقرار اللسان وعمل الجوارح، إنما إطلاق مجازي، فهو مجاز مرسل علاقته السببية، أو تسمية الشيء باسم سببيه، فالتصديق سبب وجود إقرار اللسان وعمل الجوارح، وإقرار اللسان وعمل الجوارح = ترجمة لذلك التصديق وعبارة عنه، إذا كانوا يطلقون التصديق والمعرفة والاعتقاد والإقرار على قول القلب وعمل القلب، فالأصل في إطلاق هذه الألفاظ، إنها تطلق على قول القلب والتصديق العلمي الخبري، ولكن أحيانا كانوا يطلقوها على قول القلب ولازمه (الذي هو التصديق العملي الإذعاني) واللغة تسمح بذلك، وقلنا شواهد على ذلك.

خامسا: وصفه بالجزم.

أي وصف التصديق بالجازم، وهكذا وصف الإقرار بالجازم، ووصف الاعتقاد بالجازم، ووصف اليقين بالجازم، ووصف العلم والمعرفة بالجازم، وهكذا.

فالاعتقاد في اللغة أصلا هو: الجزم والربط. فان لم يكن جازما فليس باعتقاد أصلا في اللغة، وهكذا في الشرع أيضا، فالشرع أتى بلسان عربي مبين.

فلفظ الاعتقاد نفسه أتى من مادة التي هي عقد اعتقد يعتقد اعتقادا، والمادة كلها تدور حول الربط والشد، أي عندما نقول اليقين هو الاعتقاد الجازم أو التصديق هو الاعتقاد الجازم لأن الاعتقاد نفسه ربط وشد فهي من العقدة، العقدة التي نربط بها الأشياء مثل ما يطلق عليه الشوال عندنا في مصر، لماذا؟ لأنها ربط وشد فهي في حد ذاتها جزم، فهذا معنى كلمة الجازم، وهذا تقريبا استعمالات العلماء هكذا فلو واحد سماها أي اصطلاح آخر لا بأس لا يوجد مشاحة في الاصطلاح، المهم يكون المدلول واضح ويكون واضح لنا المعنى سماها جزم أو تصديق أو اعتقاد أو معرفة أو يقين أو أي تسميه، لن يفرق المصطلح المهم المضمون يكون واضحا، ونتعامل مع صاحب المضمون على مراده هو، هذا بالنسبة لموضوع الاعتقاد والجزم لغة.

واصطلاحا: العلم الذي يكون في القلب، فإن طابق الواقع فهو صحيح وإلا فهو فاسد؛ فاعتقاد أن الله واحد لا شريك له، فهو اعتقد صحيح، واعتقاد أن لله شريكا اعتقادا لكنه فاسد لعدم مطابقة الواقع.

والمقصود كون الاعتقاد يعني الجازم، فالجزم مرادف للاعتقاد، والجزم مرادف للتصديق، والجزم مرادف للعلم، والجزم مرادف لليقين، والجزم مرادف للإقرار، والجزم مرادف للمعرفة، لأن لن يكون يقين إلا إذا كان جازما، ولن يكون تصديقا إلا إذا كان جازما، فإذا لم يكن جازما سيكون شكا وترددا، إذن هذه الألفاظ كلها قريبة ومتقاربة المعنى وكلها تدور حول الربط والشد أي الشيء خرج من الشك ودخل في التصديق ودخل في الجزم.

وهذه الأمور عبارة عن اصطلاحات عند العلماء، والعلماء نفسهم لم يفسروها، وممكن تختلف من عالم لآخر، ولكن من كثرة الاختلاط بكلامهم واصطلاحاتهم ممكن نقول الخط البياني العام في كلامهم.

وحتى نتحدث عن التصديق الجازم –ومن ثَّم كونه مرادفا لباقي الألفاظ الست-لابد من بيان ثلاث درجات:
1 – درجة التكذيب، 2 – درجة الشك، 3 – درجة التصديق.
1 - درجة التكذيب: معروف إن الشخص مكذب بالشيء. مثلا النبي محمد شخص مكذب إنه نبي أصلا، فهذه الدرجة واضحة.
2 - المشكلة في الدرجة الثانية وهي الشك:
وهذا يعني ان المشكك متردد بين أمرين، مثل النبوة محمد صلى الله عليه وسلم، هل هو نبي ولا ليس نبيا؟، فهو متردد بين هذه الأمرين، لماذا؟ لأنه عنده أدلة بتهديه إلى أن محمد صلى الله عليه وسلم نبي، وعنده شبهات بتمنع هذه الأدلة بالتصديق بالنبوة، فهو متردد أصلا بين التصديق من عدمه، أي متردد بين أدلة وبين شبهات، فيكون مترددا فترة، إن غلبت الشبهات الأدلة التي عنده فينزل للتكذيب ويكون مكذبا، فالأدلة سقطت ومحمد صلى الله عليه وسلم ليس نبيا، وإن غلبت الأدلة الشبهات التي عنده فهنا يكون مصدقا وهذا هو التصديق فهو أول درجات الجزم، فلا يصح تصديق بدون جزم، فلابد يكون تصديق جازم بحزم، لأن لو لم يكن هناك جزم وحزم، سيكون هناك تردد أي سيكون مترددا ولو كان مترددا سيكون في مرتبة الشك، فأول ما ينتقل للتصديق فينتقل بالجزم أي جزم أمره إن محمد هذا نبي عليه الصلاة والسلام، هذا هو معنى كلمة الجزم الذي يقولها العلماء، وهم يقولونها لتأكيد اللفظ حتى يكون تصديق جازم لا يكون عنده تردد، فيستقبل شيء الذي هو التصديق ويستدبر شيء الذي هو التردد والشك، هذا معنى كلمة الجازم، حتى العلماء في تعريفهم لكلمة اليقين، فاليقين عندهم هو الاعتقاد الجازم المطابق، فهذا الجازم أتت من مادة يقن يعني استقرار من يقين الشيء يقينه يقتا ويقينا، فاليقين أتى من مادة ماء يقن يعني مستقر، من فعل يقين الشيء ييقن يقنا ويقينا وهو يقن ويقين يعني ثبت وتحقق ووضح أصبح مستقرا ثابتا متحققا واضحا، يقن الشيء أي علمه وتحققه، فهذا أصل الكلام فلازم يكون التصديق جازم فلو لم يكن جازما سيكون مترددا فلم يكن دخل في التصديق لذلك دائما يقولون التصديق الجازم الاعتقاد الجازم، من باب التأكيد هذا معنى كلمة الجازم، إذن التصديق لابد يكون جازما فلو لم يكن جازما سيكون شكا وترددا.
وخلاصة ما تقدم: إن هذه الألفاظ، الأصل في إطلاقها تطلق على قول القلب، ولكن قد تطلق على قول القلب ولازمه، الذي هو عمل القلب، وهذا قد يعبر وينص العالم عليه كما تقدم عن ابن القيم وعن ابن تيمية وعن الشيخ حافظ الحكمي والقسطلاني ونحوهم، أو نعلم ذلك من خلال استعمال العالم لهذه الألفاظ كما تقدم عن ابن منده وابن حجر والآجري واللالكائي، وابن تيمية، ونحوهم. وبهذا نكون قد انتهينا من الأمر الأول، وهو مفهوم قول القلب وما يتعلق به من ألفاظ مترادفة ونحوها.
وبهذا نكون قد أنهينا الأمر الأول وهو معنى قول القلب، وكون الألفاظ الست السابق بيانها مترادفه، وأن عند السلف اطلاقها على قول القلب ولازمه من عمل القلب.

الأمر الثاني: الأدلة عليه.

وهي كثيرة منها:
1 - قوله تعالى " فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ "
2 - وقوله تعالى:" إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" أي يعلمون بلا إله إلا الله وهم يعلمون بقلوبهم معنى ما نطقوا به بألسنتهم. فهنا اشترط العلم، وهم يعلمون.
3 - وقال تعالى:" وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ " = اشترط التصديق.
4 - قال تعالى " إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ "
5 - وقول ابن عمر عن نفاة القدر "والذي نفسي بيده لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهبا ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر"وعليه فمن يُكذِّب بأي شيء من الوحي أو يشك أو يُشكّك فيه فقد نقض قول القلب، وخرج من الإسلام، وخلِّد في النار.
6 - وقوله صلى الله عليه وسلم:"من قال لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه دخل الجنة" = اشترط اليقين
والأدلة على ذلك كثيرة جدا، ومن جملة هذه الأدلة حديث كثر حوله اللغط من بعض إخواننا وفقهم الله، وهو حديث أسامة رضى الله عنه:" بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية فصبّحنا الحرقات من جهينة، فأدركتُ رجلا فقال: لا إله إلا الله، فطعنته، فوقع في نفسى من ذلك، فذكرتُه للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: أقال لا إله إلا الله وقتلتَه، قلتُ يارسول الله: إنما قالها خوفا من السلاح، (قلت: يعني قالها نفاقا فقط باللسان وهو لا يعتقد صدقها ولا يوجد عنده انقياد والتزام بمضمونها)
قال أفلا شققتَ عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟!!، فما زال يكررها علىّ حتى تمنيتُ أنى أسلمتُ يومئذ"
والفهم الصحيح للحديث يبدأ بالإجابة على هذا السؤال: ما الذي أنكره النبي صلى الله عليه وسلم على أسامة بن زيد رضى الله عنه؟ وما الذي أقرّه عليه؟

يرى أسامة رضى الله عنه أن الشاهد بـ"لا إله إلا الله "لا يُعتد بشهادته إلا إذا كانت ناتجة عن إيمان القلب وتصديقه، فلا بد من مواطأة الظاهر للباطن وإلا لكان نفاقا، أي: عملية التلازم بين الظاهر والباطن، فإيمان الباطن شرطٌ في صحة إيمان الظاهر، وهذا حق. ولذلك لم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك على أسامة رضى الله عنه.
إنما الذي أنكره النبي صلى الله عليه وسلم على أسامة-رضى الله عنه-هو: ادّعاء أسامة عدم وجود هذا الشرط، إذ لا سبيل لمعرفة ذلك إلا عن طريق الوحي، فالذي يعلم ما في القلوب هو الله وحده.
فمن الذي أخبرك يا أسامة أن الرجل قالها خوفا من السلاح ولم يقلْها إيمانا وتصديقا ؟!.
وطالما أنه لا سبيل لك -يا أسامة-لمعرفة ما في قلب الرجل فكان ينبغي عليك حمل شهادته على الظاهر ما لم تأت قرينة. قال الإمام النووي:" فأنكر عليه امتناعه من العمل بما ظهر من اللسان".
وقال الإمام الشاطبي:" ومن هنا جُعلت الأعمال الظاهرة في الشرع دليلا على ما في الباطن، فإن كان الظاهر منخرما حُكِمَ على الباطن بذلك، أو مستقيما حُكِمَ على الباطن بذلك أيضا، والأدلة على ذلك كثيرة، وكفى به عمدة أنه الحاكم بإيمان المؤمن وكفر الكافر، وطاعة المطيع، وعصيان العاصي، وعدالة العدل، وجرحه المجرح ".
والجهمية وطوائف من المرجئة تقول: بأن الإنسان قد يقترف ما يقترف من الذنوب والمعاصي في الظاهر ومع ذلك يكون مؤمنا كامل الإيمان في الباطن.
وفي شرح كتاب الإيمان لابن تيمية سأفصل عملية التلازم بين الظاهر والباطن بإذن الله، وسأذكر كلاما ماتعا ممتعا للشاطبي وابن تيمية وابن رجب ونحوهم. كما قال بعض السلف "ما أسرَّ أحدٌ سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه " وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ "...فانعكس ما في باطنهم على ألسنتهم، وهل تثمر شجرة لم نتعاهدها بالماء والسماء؛ وهل الظاهر إلا بريد الباطن؟ وعمل القلب تترجمه الجوارح، والظاهر عنوان للباطن.

الأمر الثالث: قيمته واعتباره.

أي أهميته ودرجته ومنزلته من الإيمان
قول القلب شرط صحة، أي لا يصح الإيمان ولا تصح العبادة إلا به، بل شرط وجود، لأن بقية عناصر الإيمان _من عمل القلب وإقرار اللسان وعمل الجوارح-يتوقف وجودها على وجوده، وتزول هذه العناصر أيضا بزواله.
والمقصود بالشرط هنا هو معناه اللغوي، وهو: ما يوضع ليُلْتزم به، سواء كان من ماهية الشيء أو خارج ماهية الشيء
قال ابن القيم رحمه الله "فإن زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء-أي أجزاء الإيمان-فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها وكونها نافعة".
وعليه فمن نطق بالشهادتين وهو غير مصدق لم ينفعه النطق بها في الآخرة، بل هذا نفاق وصاحبه في الدرك الأسفل من النار
الأمر الرابع: مراتبه أو زيادته ونقصانه.
مراتب التصديق وزيادته ونقصانه أو مراتب قول القلب وزيادته ونقصانه أو مراتب اليقين وزيادته ونقصانه أو مراتب الإقرار وزيادته ونقصانه أو مراتب الاعتقاد وزيادته ونقصانه أو مراتب المعرفة وزيادته ونقصانه أو مراتب الجزم وزيادته ونقصانه:
قول القلب هو العلم أو التصديق أو المعرفة أو اليقين أو الإقرار أو الاعتقاد أو الجزم، والست ألفاظ بمعنى واحد كما تقدم فأي كلام يجري على أي لفظ من هذه الألفاظ، يجري على بقية الألفاظ.
وقول القلب أو التصديق أو الاعتقاد أو اليقين أو الإقرار أو العلم أو المعرفة أو الجزم = يزيد وينقص، يزيد حتى يصل إلى أعلى الدرجات كما قال بعض السلف لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا، وينقص حتى لا يبقى فيه شيء فيصير شكا كما بينت درجات التكذيب والشك والتصديق ومترادفاته من الألفاظ الست.
فالجزم واليقين والتصديق يزيد وينقص، بل يمكن أن نقول أي شيء في الدنيا يزيد وينقص، وهذا أفضل شيء تعلمناه من شيخ الإسلام ابن تيمية، إن ليس هناك شيء مثل بعضه، كل شيء في الدنيا درجات، كما أن في الآخرة درجات، فالألوان درجات الأبيض نفسه درجات، والأزرق نفسه درجات، والأسود نفسه درجات، حتى في الولاء والبراء درجات حتى في السياسة درجات، أما من ليس عنده درجات فيجعل ولاء كامل أو براء كامل، فليس هناك حق يكون معه دخن كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، فالحق الذي فيه دخن أفضل من الباطل، فهذه درجة من الدرجات أيضا، وكثير ممن لا يجعل الأشياء مراتب ودرجات يخطئون في الحكم على الأشياء.

فهرس المجلة

